تجربتي الشعرية

بأقلام كبار ممثلي الشعر العربي الحديث

طلبت « الآداب » من كبار ممثلي الشعر الحر ان يحدثوا قراءها عن تجربتهم الشعرية ، فاستجاب عدد منهم وتخلف اخر من غير ابداء للسبب . وقد وعد الدكتور خليل حاوي بالكتابة عن تجربته في عدد قادم . وننشر فيما يلي أجوبة الشعراء مرتبة حسب الحروف الابجدية .

خواطر حول تجربتي الشعرية

بقلم :

ادونيس

ـ ١ ـ

كيف (*) يستطيع شاعر يبحث ويتخطى ، ان يكتب عن تجربته الشعرية ؟ كيف يقدر ان يعاني هذه التجربة ـ الحركة ويراقبها في آن واحد ؟ وانى له ان يصف هذا الرحيل الدائم في المجهول ؟ وهل يصح لشاعر ان يتحدث عن تجربته الشعرية ، قبل ان يجيب عن سؤال يعرف انه لا يجاب عنه : « ما هو الشعر ؟ »

ـ ٢ ـ

ليس هناك وجود قائم بذاته ، جوهر ثابت مطلق نسميه الشعر ، ونستمد منه المقاييس والقيم الشعرية الثابتة المطلقة . ليست هناك ، بالتالي ، خصائص وقواعد ثابتة مطلقة تحدد الشعر ، ماهية وشكلا ، تحديدا ثابتا مطلقا .

الموجود الحقيقي هو الشاعر ، هو القصيدة : وفي تعاقب القصائد واكمال بعضها البعض الاخر ، ما يغير فهم الشعر او النظر اليه . فالشعر أفق مفتوح . وكل شاعر مبدع يزيد في اتساع هذا الافق ، اذ يضيف اليه مسافة جديدة . وكل ابداع هو ، في آن ، ينبوع واعادة نظر : اعادة نظر في الماضي وينبوع تقييم جديد .

واذا كنا نعني بالشعر ، الشعراء وقصائدهم ، فان ادراك معنى القصيدة اساس اول في ادراك معنى الشعر . والقصيدة شكل ايقاعي واحد او كثير ، ضمن بناء واحد . لكن الشكل الايقاعي وحده لا يجعل بالضرورة ، من القصيدة اثرا شعريا . فلا بد من توفر شيء اخر أسميه البعد ، أي الرؤيا التي تنقل الينا عبر جسد القصيدة او مادتها او شكلها الايقاعي . القصائد ، كشكل ايقاعي لا غير ، ليست شعرا ، بل مصنوعات شعرية . اذ ليس الشعر علما ينميه ويطوره ، شيئا فشيئا ، بحاثون وعلماء . ليس مجموعة من القوانين والقواعد والاشكال والانظمة .

« الشعر هو الكلام الموزون المقفى » عبارة تشوه الحساسية الشعرية العربية وتشوه الحياة والرؤيا . فهي العلامة والشاهد على المحدودية والانغلاق . وهي ، الى ذلك ، حكم ينافض الطبيعة الشعرية العربية ذاتها . فهذه الطبيعة عفوية ، فطرية ، انبثاقية . وذلك حكم عقلي ، اصطناعي ، منطفي .

النتاج الذي كتب او يكتب ، ايمانا بهذا الحكم وخضوعا له ، ليس شعرا ، وحق الشعر علينا هو ان نسقطه من ديوان العرب . هذا ما افعله في « ديوان الشعر العربي » ، محاولا ان أظهر البعد الشعري العربي الاصيل الذي طمسه النقد ، وان أعيد الى الحساسية الشعرية العربية مكانتها الفريدة في التعبير عن الانسان والعالم .

ـ ٣ ـ

كان معظم نقادنا القدامى يرون الشكل الشعري وجودا ثابتا مستقلا ، قائما بنفسه . بهذا حولوا الشعر الى صناعة ، فاصلين بين الدال والمدلول : الشكل هناك مستقل ، والموضوع هنالك مستقل ، ويقتصر عمل الشاعر على التوفيق بينهما . وبقدر ما يكون صناعا بارعا في هذا التوفيق يكون شاعرا . وهم يطبقون ، هنا ، على الشعر نظرية المثل لافلاطون وسقراط من قبله ، القائلة ان المدلول ، أي الفكرة او المثال ، موجود بحد ذاته ، دون حاجة الى الدال ، اي خارج الشكل الدال وفي غنى عنه .

وهذا ، في الشعر والفن عامة ، فصل مصطنع . فالدال والمدلول الشكل والموضوع ، في الشعر ، يولدان معا . بمعنى اخر ، لا موضوع في الشعر ، بل تعبير وطريقة تعبير ، ولا حقائق مستقلة بذاتها ، بل رؤى ووجهات نظر .

طبيعي اذن الا تكون هناك قاعدة صالحة الى الابد . لذلك ، ليس امتياز الشعر في انه يخضع لقاعدة ثابتة ، وينظم الطاقة ، شأن العلم ، بل امتيازه في انه يسبق القاعدة ، ويحرر الطاقة ويفجرها ويضيئها .

لا يعني هذا التأكيد ان شعرنا اليوم هو ، بالضرورة ، خير منه في الماضي ، انما يعني ان من الطبيعي ونحن في مرحلة حضارية تغاير مرحلة اسلافنا ، ان تكون لنا ، ان كنا احياء بالفعل ، طريقة تعبير خاصة ، واشكال شعرية خاصة .

تجاوز الفن المسيحي الفن الروماني ، ورفض عصر النهضة

(*) يشكل قسم كبير من مادة هذه الخواطر محاضرة ألقيت في عمان والقدس خلال الاسبوع الاخير من كانون الاول ١٩٦٥ ، بدعوة من وزارة الاعلام الاردنية ، ضمن موسمها الثقافي ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ .

الاساليب الفوطية ، والعصر الحديث أساليب عصر النهضة . كذلك في شعرنا العربي : لم يكتب عمر بن ابي ربيعة كما كتب امرؤ القيس ولم يتبع ابو تمام اسلوب النابغة ، ولا المتنبي اسلوب زهير . فلا يقلد الشاعر ، ان كان التقليد ضروريا ، أسلافه ، وانما يقلد القوة الحية التي تحرك العالم ، والتي حاكاها هؤلاء الاسلاف ويحاكيها كل خلاق .

الذين يحتجون باوزان الخليل ، ذلك الاصولي الكبير ، لا يفهمون معناها ودلالتها . فهو لم يقصد بوضعها ان تكون قاعدة المستقبل ، وانما وضعها لكي يؤرخ بها الايقاعات الشعرية المعروفة حتى أيامه . وكان عمله عظيما اذ حفظ لنا تلك الايقاعات ونظمها في صيغ واوزان .

لكن الايقاع كالكلمة ، كالانسان ، يتجدد ، وليس هناك أي مانع شعري او تراثي من أن تنشأ أوزان وايقاعات جديدة في شعرنا العربي . ثم ان الوزن الخليلي لا يؤلف الشكل الشعري العربي كله، وانما يؤلف جزءا منه . وليس الشكل الشعري خبرة علمية تضاف بالضرورة الى الخبرات اللاحقة وتشكل معها كلا واحدا ، وليس جهازا خالصا ، او قالبا صناعيا ، نتناقله ونتوارثه . الشكل الشعري كالمضمون الشعري يولد ولا يتبنى ، يخلق ولا يكتسب ، يجدد ولايورث. حين يكرر شاعر شكلا كان في زمن غير زمنه ، لشاعر غير مشاعره ، وحياة غير حياته ، لا يكون شاعرا ، يكون صانعا .

الشكل الشعري حركة وتغير : ولادة مستمرة . الشكل الشعري الحي هو الذي يظل في شكل دائم .

— ٤ —

ما نسميه ، اليوم ، شعرا جديدا ليس كله جديدا . فالشكل غير القديم لا يعني ، بالضرورة ، انه جديد . ثمة شكل جديد ، ظاهريا، يحمل نفسا قديما . وثمة شكل قديم ، ظاهريا ، يحمل نفسا جديدا . فالفرق بين القديم والجديد لا يلتمسه ، بالضرورة ، في الشكل ، بل في الروح ، في الحضور الشعري الشخصي الجديد الاصيل ، تعبيرا ورؤيا .

وكل اثر شعري جديد حقا يكشف عن امرين مترابطين : شيء جديد يقال ، وطريقة قول جديدة . فكل ابداع يتضمن نقدا — للماضي الذي تجاوزناه ، وللحاضر الذي نغيره ونبنيه . وعلامة الجدة في الاثر الشعري هي طاقته المغيرة التي تتجلى في مدى الفروقات ومدى الاضافة : في مدى اختلافه عن الاثار الماضية ، وفي مدى اغنائه الحاضر والمستقبل .

وكل ابداع هو ابداع عالم ، فالشاعر الحق هو الذي يقدم لنا في شعره عالما شخصيا خاصا ، لا مجموعة انطباعات وتزيينات . اذن ، كل أبداع تجاوز وتغيير .

حين ندرك هذا لا يعود صعبا ان نميز بين الجديد والمزعوم جديدا ، بين الجدة والموضة ، بين الابداع والبدعة . الموضة او البدعة هي الهوس بالآني الحاضر العابر ، هي هاجس الطرافة للطرافة ، هي التعلق بالجديد لانه جديد وحسب ، وليس في هذا أصالة ولا فن .

وكثيرا ما يتداخل الابداع والبدعة . فالموضة ترافق الجدة دائما . لكن البدعة زبد عابر ، والابداع نهر عميق باق . وفي حين تكون البدعة موجة ، يكون الابداع الحركة والعمق . فالبدعة أزياء والابداع نبوة ، والازياء تعكس تموج الحياة ، أماالنبوة فتعكس اغوارها.

واليوم ، تحاول قوى الموضة ، أي قوى البدعة والسرعة والسهولة ان تجرف حياتنا العربية وتطبعها بطابعها . وكم تبدو نتائج هذه المحاولة سلبية قاتلة ، خصوصا في مجتمع تسيطر عليه التقاليد وذهنية الماضي . فهي تبقيه ، من الناحية الروحية ، رهين شكل من التفكير مستنفد عاجز ، وهي تغمره ، من الناحية الحياتية ، بشكل من الحياة لم يشارك فكره في ابداعه . هكذا يحدث الانفصال بين معنى الحياة وصورتها ، وتزداد التناقضات حدة وعمقا .

ولعل الهوة بين العالم الحديث الذي نتبناه طريقة حياة ، والقيم الفكرية القديمة التي نتمسك بها طريقة تفكير ، هي من أعمق الامارات على مأساة من أعمق مآسينا الحضارية العربية الراهنة : ان جسدنا يعيش في عالم حديث ، وفكرنا يعيش في عالم قديم . ولئن قبل الجمهور بهذا الواقع المجزىء المجزأ ، فان الشاعر يرفضه ... من اجل ان يعيد اليه الوحدة ، من اجل ان نتجاوز التناقض ويصير شكل حياتنا مقولة فكرنا وصورته .

لهذا ، ليست الموضة وحدها عدوة الابداع والتجديد ، وانما تناصرها كذلك ، عادة التشبث بالقيم الماضية المستنفدة ، العاده التي تؤدي الى السهولة والتكرار والآلية والرتابة وضمور الوعي وانعدام الدهشة ، العادة التي تنكر الزمن وتنكر التغير . هنا يكمن الفرق بين المجتمعات والثقافات : المجتمعات الحية الثقافة تتطلب من الشاعر، والكاتب عامة ، ان يكون له صوته الخاص ، ان يكون فريدا ، أصيلا . أما المجتمعات الميتة الثقافة فتتنكر للاصالة وترفض كل شاعر يتميز بلغة اصيلة جديدة ، ودفعة روحية جديدة . وهي تريد من الكتابة ان تكون صناعة يعرفها الجميع ، ويفهمها الجميع ، ويسر بها الجميع . وتطلب ان يكون الشعر والفن احدى المنافع العامة . وهي ، على الرغم من انها تتبنى ما يرد عليها من اشكال الحياة الجديدة ، تتردد في تجديد فكرها او مقاومة ، وربما رفضته .

ان حياتنا العربية اليوم حب يدعونا لكي نخلقه من جديد .

كذلك شعرنا .

— ٥ —

ان اكتب قصيدة لا يعني انني أمارس نوعا من الكتابة ، وانما يعني انني أحيل العالم الى شعر : أخلق له ، فيما اتمثل صورته القديمة ، صورة جديدة . فالقصيدة حدث او مجيء ، والشعر تأسيس، باللغة والرؤيا ، تأسيس عالم واتجاه لا عهد لنا بهما ، من قبل . انه كشف وفتح . وكل ابداع تجاوز ، لهذا كان الشعر تخطيا يدفع الى التخطي . وهو ، اذن ، طاقة لا تغير الحياة وحسب ، وانما تزيد ، الى ذلك ، في نموها وغناها وفي دفعها الى الامام والى اعلى .

من هنا ، كان الشعر أعمق انهماكات الانسان واكثرها اصالة ، لانه اكثرها مجانية وبراءة وفطرية والتصاقا بدخائل النفس . ومن هنا ، كان الشعر وسيلة حوار اولي بين الانا والاخر ، ووسيلة اتصال اولى . فهو ، لتجذره في اعماق الانسان ، ومجانيته ، فعال وملزم . انه حميا تسري في الانسان وتسري ، من ثم ، عبر سلوكه ومواقفه وأفكاره ومشاعره ، في الحياة والواقع .

واذا كان الابداع تجاوزا ، فهو يتضمن اختيارا ، لان من يبدع يتخلى عن شيء ليتبنى اخر غيره . لكن هذا التخلي لا يعني الرفض بقدر ما يعني البحث عن قبول جديد . فالرفض هنا مرتبط بالقبول : انهما وجهان لحقيقة واحدة . لهذا يمكن القول ان البحث عن قبول جديد ، هو من أعمق مميزات الحركة الشعرية العربية الجديدة ، حتى ليمكن القول بالتالي : ليس هناك شعر عربي جديد الا حيث البحث والتخطي ، حيث التحول في أعماق الانسان وفي الحياة والواقع . ومن هنا نفهم كيف أن القديم يجب ان يكون في خدمة الجديد . وحيث تنعكس هذه الحقيقة او تنتفي يكون الانحطاط والتخلف .

في هذا ما يوصلنا الى القول انه لا يصح تقييم الابداع الشعري الجديد ، بمقايسته مع الماضي او مقارنته به ، بل يجب ان نقيمه استنادا الى حضوره ذاته — الى حضور القصيدة بكيانها الخاص ونظامها الداخلي الخاص . فكل ابداع برق خاص لا يتكرر ، انبجاس مفاجىء قائم بذاته ، ينظر اليه في حدود ذاته .

وفي هذا ما يتيح القول ان الشعر اصل ، وليس ظاهرة ثقافية كبقية الظواهر . انه روح الانسان ، روح الشعب ، وهو ، من هذه الشرفة ، روح تاريخه . ولا اعني بالتاريخ ، هنا ، الوقائع والاحداث ، بل اعني ما نسميه رسالة الشعب او الامة . لهذا كان الشعر اسمى أشكال التعبير الانساني ، وشكلا ساميا من اشكال الوجود . يعلمنا

— التتمة على الصفحة ١٩٥ —

تجربتي الشعرية

بقلم عبد الوهاب البياتي

قال مشتهوق لعاشق : ايها الفتى انت قد رأيت في غربتك
مدنا كثيرة فخبرني : أية مدينــــة من هـــذه أطيب ..
فاجاب : تلك المدينة التي فيها من أخطف قلبي

من قصيدة « مدينة العشق »
لجلال الدين الرومي

***

لست اريد ان اضع تعريفا للشعر ، ولست اهدف الى تحــديد مكان الشعر من العالم ولا مكانه من عصرنا ، وانما الشيء الذي أريده هنا ، هو تحديد مكانه من نفسي ! فحينما بدأت أعالج الكلمة ، احاول بها ان اعبر عن انفعالي بالعالم ، لم يكن الشعر هو اول ما حاولته من اشكال الكتابة . لقد كتبت القصة القصيرة وكثيرا من الحواريــــات القصيرة والقصائد ايضا . ولكن شيئا ما كان يلح في طلب التعبير عنه ، شيئا كان يجول بنفسي ، ولد حينما بدأت - للمرة الاولى - اقامتي في بغداد .

كنت قادما من الريف ، حيث عشت فيه ، وعائدا اليه وقادمــا منه ، حتى عام ١٩٤٤ وهو عام دخولي دار المعلمين العليا ، وكــانت الصدمة الاولى حينما اكتشفت حقيقة المدينة . كانت مدينة مزيفــة ، قامت بالصدفة وفرضت علينا ، لم تكن تملك من حقيقة المدينة اكثر من تشبهها الشديد ببهلوان او مهرج يلصق في ملابسه كل لون او اية قطعة يصادفها ، أما اعماق المدينة الحقيقية التي عاشت قرونا عديدة على ضفاف « دجلة » وولدت وعاصرت حضارات عظيمة ، فقد شعرت بانها ماتت واختفت الى الابد . ولم أكن ارجو لها العودة ، وانمــا رجوت لها امتدادا كامتداد النهر الذي ينبع ويجري الى البحر الكبير يعانقه ويذوب فيه . ومن هنا كانت الثورة على المدينة رفضا لشكلهــا القائم ، ولم يكن رفضا عاطفيا وانما كان بذرة لتمرد هو الذي ولــد الثــورة .

ومثل مديننا الشبيهة بالمهرج ، كان جيلنا المتسول الذي استعار ثيابا وازياء من كل عصر حتى فقد شخصيته وصوته الحقيقي . لــم يكن هناك ارتباط بين دراستنا واحتياجاتنا الروحية والمادية ، وقــد ولد هذا الانفصام شعورا بالتناقض بين الفكر السائد وبين الواقــع القائم امامنا . ولم يكن هذا الشعور قائما من الفراغ ، وانما قام عـلى شعور طبقي سابق وحاد ، ولكن هذا الشعور لم يكن حقدا ، وانما كان احساسا بفقدان العدالة وانقلاب الاوضاع ، الشيء الذي يتطلب عملا فرديا قائما على الحقد . كنا بحاجة الى شعلة تلتهب لتحرق هــذا الواقع وتطهره ، ولكنني لم اكن قد تبينت بعد كيف تلتهب هذه الشعلة، ولا صورة المستقبل بعدها ، لذلك كنت الجأ محموما ، ملتهب الحواس الى كتب التاريخ التهمها لعلي أجد فيها مهربا من الواقع المزري .

وفي نفس هذه الفترة تمتع جيلنا بفرصة اوسع من حرية النشر نتيجة للحرب التي كانت قائمة ضد الفاشية ، وتفتحت امامنا ابواب ثقافات عديدة ، ألتقت عقولنا باعمالها الثورية والاكثر انسانية وقدرة على مواجهة مشاكل الانسان وطرح حلولها . لقد عرفنا غوركي واسلافه من الكتاب الروس الكلاسيكيين العظـــام (تولستوي ، تشيخوف ، ديستويفسكي بشكل خاص) كما عرفنا عددا من ادباء الغرب ، وانني لاذكر كيف الهبت مشاعري في ذلك الوقت كتابات اودن واشعـــاره بفنائيتها الواقعية التي سبقت ايليوت الينا . ولم يكن ادباء التعبيــر عن الازمة هم من عرفناهم وحدهم ، ولكننا عرفنا بيرون وشيلي وكيتس وبودلير ورامبو وفكتور هيجو ، وهكذا عرفنا انواعا متعددة من الابداع الفني وتخطينا مرحلة الناثر بماجدولين وغيرهـــــا من اعمال الادب الرومـانسي .

ولم يستطع واحد من شعراء هذه الفترة من العرب ان يلفت نظرنا ، فحتى جبران تصورته كاهنا عجوزا يلبس مسوحا سوداء ويذرف الدموع امام جثة ميتة . كان ادبهم ثورة عاطفية رومانسية اكثر منـــه تعبيرا عن ولادة الجيل الجديد من خلال الازمة وسنوات العذاب .

عبر كل هذه القراءات والعلاقات وملامسة الواقع الحي والاحتكاك به ، ومن خلال الصحبة الادبية مع بدر شاكر السياب وبلند الحيدري وعبد الملك نوري وغيرهم ، بدأت مشاعرنا تجد لها متنفسا ، وبدأت تتبلور قيم معينة عن الادب والفن والحياة بوجه عام .

في هذه الفترة وقبلها بقليل كنت كمن يبحث عن الشكل المـلائم للتعبير عن نفسه .. واكتشفت ان التعبير الشعري اقرب الي من اي شكل اخر . كان هذا الشكل اقدر على التعبير عما كان يجيش بصدري من قلق ومشاعر اكثر مما يتفاعل في عقلي من افكار . كما كان تكويني النفسي من اساسه : الرؤية الشاملة للاشياء والنفاذ الى جوهـــــر الاشياء الصغيرة التي هي مادة الشعر وينبوعه . وهكذا كان الشعر اكثر ملاءمة لحركة نفسي الداخلية واقرب الى رغبتي في ضغط الافكار والاحاسيس وتجسيدها . كذلك كانت قراءاتي الاولى التي فرضتهـا علي مكتبة جدي - وهو رجل دين - الفنية بكل دواوين الاقدمين التي كنت قد قرأتها قراءة مؤلمة معذبة لانها كانت قراءة البحث عن شيء مفقود احسه ولا اعيه ، فكان ان نجوت من الوقوع فريسة في شراك تأثيرها الكلي . أمــا اغاني القرية التي تركت فـي نفسي اثرا لا ينسى فقــد كانت متطابقة مــع احساسي بشعر الحياة نفسها المتجســد في الناس والبيوت والطبيعة وحزن الكائنات الابدي والظلال الهاربة للحياة التي تجدد نفسها في تعاقب الفصول .

لكل هذا لم يكن غير الشعر قادرا على اشباع رغبتي في التعبير بالكلمة ! واني وان كنت لا أؤمن بامكانية ان يولد الشاعر وفي يــده القيثارة ، وانما يمكن ان يولد من قلب ذلك الانسان الذي لا يتــم التوافق بين عالمه الداخلي والعالم الخارجي من حوله . ان التناقض الذي يمكن ان يقوم حينئذ يولد عددا من الاحاسيس غير المصنوعـة وغير القابلة للتفسير . وفي اللحظة التي يكتشف فيها الانسان تناقضه مع العالم الخارجي يبدأ في التمرد عليه . ومثلما يبحث النهر الدفين عن المكان المناسب الذي يمكن ان ينبع منه ، يبدأ الشاعر الموعود في محاولة اكتشاف نفسه . ان المهم هنا ، انما هو نقطة البداية . ان البدء في محاولة فهم العالم ومحاولة تغييره ودفعه الى خارج نطـاق النصائح والتعاليم والتربية ، ومحاولة التمرد عليها ومناقشتهـــا ، وخلق نوع من الحوار الصامت حولها ، كل هذا يلعب دورا في صنع عـالم الشاعر القادم .

لقد بدأت معرفتي بالعالم في الحي الذي نشأت فيه ببغـــداد بالقرب من مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني وضريحه وهو أحد كبـار المتصوفة . كان الحي يعج بالفقراء والمجذوبين والباعة والعمـــــال والمهاجرين من الريف والبورجوازيين الصغار . كانت هذه المعرفـــة هي مصــدر ألمي الكبير الاول .

ثم بدأ تعاملي مع الكتب ومع القراءة . وكمسافر في قطـــــار لا يعرف المدينة التي سيهبط فيها ، لم اتوقف عند كتاب معين او نوع واحد من الثقافة ، كان كل كتاب هو بعينه المدينة التي لا اقصدها . كانت هناك محطات صغيرة اعتقد ان وراءها بارقا من أمل ، ثم اكتشفها سرابا لا يروي ظمأ ، وهكذا كنت ، وما أزال ، مسافرا بلا عودة ، تتجدد

أفكاري على الدوام . كان التاريخ هو النوع الذي احبه من القراءة ، ولم أقرأه كركام من الوقائع او الاحداث ، وانما كتجربة انسانية واسعة ومتعددة الجنبات ، وكتجسيد لقضايا الانسان التي طرحت على كل المجتمعات الانسانية الماضية . كذلك كانت الاثار واللقى التي ذابت صورها في نفسي ، البقية الباقية على سطح هذا الكوكب من كل هذه التجارب التي خاضها الانسان واختفى كما تختفي اشباح الليل. حينما كنت اقف امام كوب قديم او قطعة عملة اثرية او تصوير باهت الالوان ، كان يجتاحني احساس من انعدام الصلة بالعالم الخارجي ، وأروح افتش عن هذه الاثار في نفسي ، ماذا بقي منها لدي ؟ كل هذه الاشياء القديمة تركها اصحابها ومضوا ، كانت هي الصورة الحية لعمق الزمن ، والشيء الوحيد الباقي من حياة الناس الذين عاشوا في زمن ما ، ان الفن وحده ، عصارة تجربة الانسان ، هو ما يتركه الناس بعد حياتهم .

وفي نهاية الاربعينات وقفت طويلا عند الادب الواقعي . كانت رواية « الام » لغوركي هي اول عمل اجتذبني عندما اكتشفت انه كتاب لم ينقل عن الكتب ، وانما عبر عن حياة الناس وتجاربهم . ثم وقفت طويلا مرة اخرى امام الادب الوجودي ، وبالذات امام كامي وسارتر . كان الاصرار على الحرية ، وتجسيد صورة الثورة المستمرة من جانب الانسان ورفض التفاهة والسطحية والمجانية واللامبالاة ، كانت هذه الاشياء هي ما استوقفني عند الواقعيين والوجوديين ، احسست انهم يعودون بالادب الى ذلك الفهم الانساني الشامل لكل ادب عظيم منذ الاغريق والعرب القدماء ، العودة بالكلمة ، من اجل منحها معناها الحقيقي من خلال حياة الناس وتجاربهم الحقيقية . ومن هنا كان عثوري على كثير من الاجوبة لاسئلة لم اكن اجد لها جوابا .

ولكن الشعر نفسه لم يكن غريبا علي منذ البداية ، ولا يمكن لشاعر ان يكون غريبا عن الشعر ، شعر الحياة وشعر الشعراء الاخرين.

كانت اغاني الفلاحين والحكايات الشعبية المنتشرة في الريف هي زادي الشعري الاول . وكان طرفة بن العبد وابو نواس والمعري والمتنبي والشريف الرضي هم اكبر من أثر في من الشعراء العرب. لقد وجدت فيهم نوعا من التمرد على القيم السائدة ، والبحث عن أشياء لا يوفرها واقعهم او مجتمعهم او ثقافتهم . لقد عانى هؤلاء محنة الوجود الحقيقية ، وعبروا عن انفسهم باصواتهم الذاتية لا باصوات غيرهم . ورغم هذا فقد انتابني ازاءهم نوع من القلق حينما تبينت إن لغتهم كانت لغة مصنوعة ، كانت الاشياء التي يصفونها موجودة قبل وجودهم وان كلماتهم كانت تفقد حضورها في نفسي وتتحول الىدلالات فقدت عندهم الكثير من أصالتها ، وانهم انطفأوا على اسوار عصرهم عاجزين عن تخطي رؤياه وامكانياته . لقد كان الشكل الذي امدتهم به ثقافتهم الشعرية وتراثهم الشعري شكلا مصبوبا منسقا خلفته رؤى واحتياجات ومفاهيم وجدانية وفكرية وموسيقية معينة . وفي نفس الوقت الذي فتنتني فيه قدرتهم على تخطي واقعهم الاجتماعي والتعبير عن شحنانهم الوجدانية المتوقدة ، أحسست بان الشكل الذي لم يستطيعوا تجاوزه كان قيدا على رؤاهم وعواطفهم المتمردة . كان قيدا على رؤاهم ، كما تصورتها ، انا منعكسة على صفحة نفسي، التي هي جزء من عالم مختلف وعصر متجدد . كما دفعني فهميلموسيقى الشعر المرتبطة بنوعية ومدى التجربة الشعرية ، الى البحث عن ايقاع موسيقي خارجي يتسق مع ايقاع التجربة الجديدة ، تجربة تقويض ابنية قديمة واختيار أنغم ما فيها لتشييد بناء جديد لحمته واكثر سداه ينعكس من واقع اجتماعي وفكري ووجداني مختلف . كان لا بد وان تختفي هذه الثنائية الكامنة في القصيدة الكلاسيكية الحديثة حتى تصبح موسيقى الشعر جزءا عضويا مكملا للتجربة الشعرية نفسها وبعدا ثالثا يحمل نفس ملامح ايقاعها النفسي واساسها الفكري والوجداني . ومن الشعراء الذين قرأتهم باهتمام بالغ : الجامي وجلال الدين الرومي وفريد الدين العطار والخيام وطاغور . لقد عاني هؤلاء محنة استبطان العالم ومحاولة الكشف عن حقائقه الكلية من خلال تجربة التصوف الممتزجة بالرؤية الشعرية النافذة . ثم كان هناك شعراء معاصرون ومحدثون : اودن ونيرودا واراغون وايلوار وناظم حكمت ولوركا ومایاكوفسكي . لقد استوقفتني اشعار هؤلاء ، ليس لانهم مشهورون ، فقد سقط من حسابي شعراء مشهورون كثيرون ، وانما لان اشعارهم ، بجانب انها اشعار تحمل جوهر الشعر الحقيقي ، تحمل قدرة النفاذ من خلال الموسيقى والصورة والرؤية الى وجدان الانسان المعاصر ، لانها تنبع ـ بابعادها هذه الثلاثة ـ من تصور نفس هذا الانسان المعاصر لذاته ولواقعه ، الا انها تحتوي على نوع من الالتزام الواعي الحي النابع من داخل نفوسهم . ووجدت في اشعارهم كل خصائص بلادهم وقسماتها التي تصل بهم الى التصور الانساني الكامل ، خصائص الانسان الحي في تشيلي او اسبانيا ، اشكال حياة الانسان في نضالاته وهزائمه وحبه ، ومن خلال هذه الجزئيات استطعت ان أتصور النظرة الشمولية في شعرهم ، هذه الشمولية التي هي نقيض للسكونية التي قد نجدها في اشعار شاعر كبير مثل ايليوت الذي ينعدم في شعره الاحساس بالصراع والجدلية . وكان اختياري لهم في نفس الوقت بمثابة دفاع عن قضية الالتزام في الشعر العربي بطريقة غير مباشرة ، عن طريق تجسيد كيف يمكن ان يكون الشاعر ملتزما وعظيما في نفس الوقت والتأكيد على اهمية فنية التجربة وجمالياتها .

وعندما غمر النور الواقع الانساني امام عيني مع بداية الخمسينات كانت الصورة التي ارتسمت امامي صورة واقع محطم يخيم فيه اليأس على كل شيء . وهكذا كانت اشعاري الاولى محاولة لتصوير هذا الدمار الشامل والعقم الذي كان يسود الاشياء . لم اكن احاول البحث عن السبب الكامن وراء هذا العقم ، ولكنني اكتفيت بتصويره. وعندما تجاوزت مرحلة التصوير ، لم يكن ذلك مرتبطا بالعثور على مبرر اجتماعي للتمرد ، بل كان مرتبطا بالقضية الميتافيزيقية ، حتى لقد كانالمفهوم الميتافيزيقي لرفض الواقع والتمرد عليه ـ دون الثورة ـ هو بداية الالتزام .

كان البحث عن الشكل الشعري الذي لم اجده في شعرنا القديم، وكان التمرد الميتافيزيقي على الواقع جملة ، دون وضع بديل له ، والاشواق التي لا حصر لها ، والتطلع الى عالم تسقط فيه كلالاسوار بعيدا عن الشعارات التي استهلكت ، كان هذا البحث هو ما أدى الى اكتشاف الواقع المزري الذي تعيشه الجماهير والى اكتشاف بؤسها المفزع . وهنا كان لا بد من ضمور الباعث الميتافيزيقي في نفسي ونمو الدافع الاجتماعي والسياسي ، وكان هذا النمو انعكاسا وتفاعلا مع ما حدث في المجتمع العربي ذاته من تحول الى الثورة الايجابية نفسها . كنت أشعر في ذلك الوقت بانني اكتب مدافعا عن الحرية والعدالة للجماهير البائسة لا لنفسي . كنت افهم الالتزام : على ان الفنان مطالب من اعماق اعماقه ان يحترق مع الاخرين عندما يراهم يحترقون . اما الوقوف على الضفة الاخرى والاستغراق في الصلاة الكهنوتية فليس هذا من صفات الفنان الحقيقي في اي عصر من العصور .

لقد غمرت الرؤية المتمردة كل المواضيع الشعرية التي كتبت فيها . فالموت المجاني الذي يضرب ضحيته دونما سبب مفهوم ، ذلك الموت الذي كان اشد ما يكون بروزا في « اباريق مهشمة » هذا الموت ، كان لا بد من فهمه وكان فهمه هو التمرد عليه . وفي « المجد للاطفال والزيتون » و « اشعار في المنفى » و « عشرون قصيدة من برلين » و « كلمات لا تموت » كان هناك الموت من أجل الحرية ، اي ان الموت قد اصبح ثمنا للحرية واصبحت هي ثمنا له ، اما الموت بالمجان فلم تعد له قيمة قط اذ انه يجرد الانسان المحكوم عليه بالموت من كل قيمة ولا تصبح لحياته السابقة على الموت معنى ابدا . ولكن هذا الموت من اجل الحرية ، موت المناضلين الذي هو استشهاد نبيل ، لم ينفصل ابدا عن الموت الانساني . اذ لم يتحول هؤلاء المناضلون

ـ التتمة على الصفحة ١٩٨ ـ

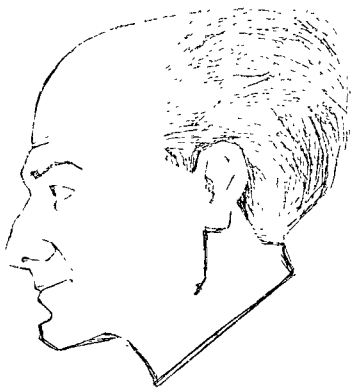

عن تجربتي الشعرية ..

بقلم : احمد عبد المعطي حجازي

لا اذكر اوائل شعري .. ولكني ما زلت اذكر ان اول قصيدة لي صحيحة الوزن كانت محاولة صغيرة لتقليد رباعيات الشاعر المتمرد عمر الخيام .. وان ثاني قصيدة كتبتها كانت في الحب ، ولم يبق منها في خيالي الا انني حاولت فيها قافية صعبة وخاصة في ذلك الوقت ، هي قافية « التاء » المفتوحة على هذا المثال « بيتا » .. وقد ظللت اكثر من شهر احاول ان اقفي بها مقطوعة من عشرة ابيات فلم يتيسر لي ذلك الا بصعوبة بالغة استعنت عليها بمختار الصحاح ، وهو المعجم الوحيد الذي كنت املكه في ذلك الوقت البعيد ، فلم ينجدني الا باربع او خمس كلمات اذكر منها « نعت » و « شت » بمعنى شتيت .. وغير ذلك مما اعجزني ان اضعه في قصيدة حب رومانتيكية يكتبها عاشق في الرابعة عشرة من عمره ..

وعلى الرغم من نسياني لهذه الاشعار ، فانا ما زلت اذكر ذلك الجو الذي انطلقت منه محاولاتي الاولى ..

كان جوا خشنا بكل ما تحمله هذه الكلمة من واقعية .. ولن اصف هذا الجو تفصيلا بالطبع ، ولكن حسبي ان اشير الى اهم عناصره التي ربما ساعدتني على تأمل تجربة اعتبرها تجربة متواضعة ..

بلد ريفي في قلب الدلتا الخصبة .. فقير لان ميزة الخصوبة فيه تقابلها آفة كثافة السكان .. محافظ لان رزقه وان كان ضيقا الا انه مضمون ومن هنا القناعة والحاجة الى المحافظة .. متطلع لفقره وقربه من المدن ، فلدى اهله حماس التعليم ابنائهم حتى يجتازوا مصيرهم المحدود ..

بلد ريفي في قلب الدلتا الخصبة .. فقير لان ميزة الخصوبة يطلبون العلم .. وفيه ابناء الاغنياء الذين لا يكملون دراستهم ويتقلبون مع ذلك في نعيم آبائهم .. بلد كهذا يعرف الاراء الجريئة كما يعرف صرامة التقاليد .. يعرف نبالة الاغنياء وسخط المحرومين ..

اما البيت .. فقد كنت فيه اكبر الابناء لرجل ميسور الحال .. كان والده الذي هاجر من شمال الدلتا بعد ان طردته والدة الخديوي توفيق من ارضه ـ يعده بطلب العلم في الازهر ، ولكن جهده قصر بعد ان حفظ القرآن الكريم والم باطراف من الثقافة القديمة ، فتعلم حرفة الخياطة التي كانت تدر عليه دخلا يزيد عن حاجته وحاجة زوجته الاولى التي لم تنجب ، فعرف مغامرات الريفيين حين يأخذون افضالا من مالهم ويذهبون بها الى المدن القريبة يقضون فيها اياما ناعمة .. وظل هكذا حتى جاوز العقد الرابع فتزوج والدتي التي انجبت له ثمانية ابناء اذاقوه في شيخوخته شظف العيش بقدر ما اسعدوه ببقاء الذرية..

وقد اورثه حلمه القديم في ان يتعلم حبا شديدا للكتب ، فكانت لديه ثروة لا بأس بها من السير الشعبية ، وبعض مؤلفات القدماء كابن المقفع ، وابن عبد ربه ، وبعض كتب الطرائف والنوادر مثل « نكت الهميان في نكت العميان » وبعض دواوين الشعراء المعاصرين كديوان حافظ الذي كان والدي يفضله على شوقي ، ومجموعات من الصحف والمجلات التي كانت تصدر قبل ربع قرن في القاهرة ..

ماذا ورثت من كل ذلك ؟

ورثت احساسا مرا بالانقطاع .. فافربائي فليلون في بلد لم يولد فيه من اصولي الا ابي .. ورثت احساسا مبكرا بالحداد حين تساقط خمسة من اخوالي موتى الواحد بعد الاخر .. ورثت تحسسا شديدا لما تنطوي عليه الاشياء من طزاجة ساخنة ولذلك فالصورة الريفية الاثيرة لدي هي صورة الحقول المزدهرة الساكنة ساعة الظهيرة .. ورثت شعورا حادا بالظلم ، ولكن ضعف جانبي ، واحساسي بأن هذا الظلم ليس عارضا وانما هو روح تتشكل بصور كثيرة حولا تجربتي الروحية في مطلع صباي من التمرد الى التقشف ، وان ظلت طبيعتي موزعة بين تقشف صارم وانطلاق جامح .. ولعل هذا هو مصدر فتنتي الاولى باشعار الخيام الذي ربما كان تصوفه هو الحل الذي وجده التمزق نفسه بين المتعة والتقشف .. ورثت عادة احترام الكتب ، واعجابا شديدا بأبي يصل الى حد الولاء ..

***

كنت في الخامسة من عمري حين وضعني ابي في الماء والبسني ثيابا جديدة ودفع بي لاحفظ القرآن ، فلم تمض سنتان حتى كنت احفظ نصفه ومن ثم تنقلت بين المدارس الابتدائية لاقضي بها خمس سنوات، تقدمت بعدها لامتحان القبول في مدرسة المعلمين لافضي بها سبع سنوات حتى تخرجت فيها وانا في حوالي العشرين ..

والحق انني رغم هذا لم احصل ثقافتي بطريقة منظمة .. فقد بدأت بداية مقلوبة حين قرأت وانا صغير كتب ابي القديمة التي ساعدني على قراءتها حفظي للقرآن الكريم ، وحين كنت اقرأ بعد ذلك ما يقع عليه يدي عن طريق الاستعارة في الغالب بنهم وبدون اطمئنان.. فلقد قرأت معظم كتب عبد الرحمن بدوي قبل ان اقرأ كلمة لتوفيق الحكيم .. وقرأت كل كتب الرافعي دون ان اقرأ العقاد او طه حسين الا بعد ذلك بعدة سنوات .. وقرأت معظم اشعار الرومانتيكيين علي محمود طه ، وناجي ، ومحمود حسن اسماعيل بعد ان قرأت اشعار الجاهليين ، وقبل ان اقرأ شوقي او مطران ..

ورغم هذه القراءة المرتبكة كان وجداني يتجه شيئا فشيئا الى الرومانتيكيين ، خاصة بعد ان دخلت تجربة الحب الاول بكل قسوتها في بلد ريفي محافظ .. تلك التجربة الرائعة التي عانيت منها خمس سنوات ، والتي ساهمت بقوة في بناء عالمي الداخلي والتي ظلت تغذي

مـن اجـل افريقيـا

تأليف فرانتز فانون ـ ترجمة محمد الميلي

منشورات المطبوعات الوطنية الجزائرية

وكلاء التوزيع في المشرق العربي دار الطليعة ـ ص.ب : ١٨١٣

وجداني بآثارها حتى وقع اهم حدث في حياتي حتى الان وهو الهجرة النهائية من الريف والاستقرار في القاهرة ..

ان وجودي كشاعر مدين لتلك السيدة الريفية الخالية البال التي ربما لم تقرأ لي حرفا حتى الان ، والتي كانت تكبرني بعدة اعوام اهلتني للزواج بينما كنت لم ازل تلميذا ..

وحين كنت ارى ان هذا الحب بلا مستقبل فلم اصرح به لاحد.. بل كتمته ليزداد اشتعالا وتوهجا وليدفعني دفعا الى الشعر الذي اكتسب قيمته في نفسي بقدر ما كفل لهذا الحب المحكوم عليه بالموت من حياة .. لقد تقمص الحب ثوب الشعر الذي بقي لي حين كانت محبوبتي تزف لرجل اخر ..

وهكذا ولدت كشاعر ولادة رومانتيكية برغم نشأتي الكلاسكية الصارمة ، تلك النشأة التي ستضطر الى الاختفاء لتعاود الظهور بعد ذلك في صور اخرى .. وهكذا بدأت اتعلم من تجربتي الخاصة ان الشعر فن ذاتي يتحدث باسرار الشاعر لا باسرار سواه .. وانه مع ذلك قيمة اخلاقية اذ انه يهب الحياة للاشياء الحية ، واذ يبني العالم من جديد بناء لم اقنع قط بأن اقيمه في قصائدي فحسب .. بل كنت وما زلت اتوق الى ان يتحقق في الواقع .. ولم لا والواقع نفسه مليء بالشعر!

هذا الطموح في الحقيقة هو الذي قادني احيانا للعمل السياسي. وهو الذي فتح امامي باب التمرد الذي تيسرت لي ممارسته حين دخلت مدرسة المعلمين التي كانت موجودة في عاصمة الاقليم بعيدا عن القرية والتي كانت تزخر بحياة الطلبة العنيفة الشائقة ..

في هذه المرحلة الاولى من تجربتي الشعرية كانت قصائدي التي كنت احذو في كتابتها حذو الرومانتيكيين تتمرد تمردا غامضا على عالم احس انه عالم معاد وضيق ، وتمردا صريحا على النظام السياسي القديم الذي بدأت احتك به في ذلك الوقت وتصيبني منه بعض الاضطهادات. هذا على الرغم من انني فشلت في ان انخرط بصدق في اي تنظيم سياسي من التنظيمات التي كانت تعمل على تقويض النظام القديم ..

واذ تغير النظام وانفض المعترك اقتصر شعري على الشكوى من ضيق العالم والتغني بالغربة التي تأكدت حين هاجرت الى القاهرة وان كانت قد اتخذت صورة جديدة ..

***

فوجئت بان شعري الذي تعبت حتى صار له قاموس الرومانتيكيين في اللغة ، وطريقتهم في التصوير ، وتجاربهم الاثيرة ، والذي اصبحت بعض المجلات الادبية ترحب بنشره .. فوجئت بأنه لا يعجب الشبان القاهريين ..

كانوا يقولون لي .. ما معنى :

« الهيكل المهجور ، والصمت المضمخ بالظلال »

وكانوا يقولون لي .. ان هذا البيت لا يعكس نفسك ، أو هو يعكس نفسا مغلقة .. ثم ما هي الصورة التي تريدنا ان نتصورها ؟

وبقدر ما حزنت على تعب العمر بقدر ما وجدت ان ما يقولونه صحيح ، خاصة وان تجربة ايامي الاولى في القاهرة قد امدتني بمشاعر وصور اخذت تلح علي في الظهور .. وهكذا بدأت اكتب « الطريق الى السيدة » اول قصيدة لي في الشكل الجديد ، واتجه الى ما يمكن ان يسمى بالموضوع لاختبر قدرتي على التحرر من عالمي القديم الضبابي ، وعلى الاندماج في عالم غريب ، فكتبت « مذبحة القلعة » وما لبثت ان وضعت يدي على النموذج الذي ظهر في ديواني الاول « مدينة بلا قلب » نموذج الغريب في المدينة ، خاصة بعد ان توفي والدي فاصبح احساسي بالغربة قويا وان لم يصل ابدا الى حد القتامة .. ذلك لان حنيني القديم لعالم واقعي افضل عاد الى الظهور ، حين تهيأت مجموعة من الظروف جعلتني اؤمن ايمانا عميقا بالاشتراكية والوحدة العربية..

لقد امدتني هذه العقيدة بالنموذج المقابل للغريب الضائع..وهو نموذج الثوري المتيقن .. كما ساعدتني على ان اعيد النظر في ثقافتي الكلاسيكية لاستفيد منها وخاصة في تجديد قاموسي الشعري الذي خرج عن قاموس الرومانتيكيين ، فلم يعد له الا ان يطعم بالقاموس الكلاسيكي وحتى يحمي نفسه من لغة الصحف التي ينخدع بعض الشعراء فيحسبون ان الشعر الجديد لا يحتاج الى اكثر منها ..

ولكن عثوري على النموذج الثاني وان كان قد فتح لي عالما جديدا في الشعر والثقافة والتجربة بعد عالم الديوان الاول قد اوقعني في صراع عنيف ، او هو احيا في نفسي الصراع العنيف بين ركونها الى لذة الاستشهاد التي تبدو في تجربة الغريب ، وفرحها الجامح بالثورة وملك العالم ..

صحيح ان هذين النموذجين ينبعان عن مصدر واحد هو التمرد على الواقع الكائن .. هذا التمرد الذي يظهر احيانا عن طريق قطع الصلات بين النفس وبين الواقع ، واحيانا عن طريق تأكيد هذه الصلات وتغذيتها ..

وصحيح ان الغربة عندي لم تكن موقفا ثابتا او اختيارا نهائيا ، ولذلك ظل العالم الخارجي حاضرا يتراوح خلالها .. ومن هنا كان الصراع الذي يتجنبه شعراء اخرون حين يرون انه لا حقيقة الا ما يرونه داخل نفوسهم ، وان الواقع وهم باطل ..

وقع الصراع بيني وبين العالم ، لانني بقدر ما ارى الحق في نفسي اراه فيما حولي .. وبقدر ما تكتسب الاشياء وجودها من موقعها في وجداني بقدر ما تتمتع بوجود مستقل اجد نفسي دائما مسوقا الى الاقتراب منه واستكناه سره ..

وهكذا خلال هذا التردد بين وجداني وبين العالم تتردد في شعري نغمتان رئيسيتان .. العزلة والاندماج .. النجاح والخيبة .. الهزيمة والانتصار .. العقيدة والنظام .. ويقوم الصراع بينهما ..

ومن الصدق ان اقول ان هذا الصراع في ديواني السابقين كثيرا ما كان يقوم بين قطبين منفصلين .. وهذه هي المشكلة التي احاول حلها باعادة تأمل التجربة وتحليلها لاحصل على ادراك منسجم للعالم، يحول هذا الصراع الفنائي اذا امكن القول ، الى صراع مركب يتم داخل الرؤية الواحدة بين عناصر مشتبكة ، فتبرز التجربة بقوامها الحقيقي ويتحقق الانسجام الذي اعتقد انه السمة الرئيسية في شعري الاخير..

ان قضيتي الان هي أن اجعل من الغريب والثوري شخصا واحدا .. في الفكر وفي الشعر .. وكأنني في ذلك اسير في الطريق التي تسير فيها الحياة نفسها .. اذ ان هذه الوحدة بين الغريب والثوري لم تتحقق كما تتحقق الان !

صدر اليوم :

عشرة ايام هزت العالم

وصف شاهد عيان لثورة اكتوبر الروسية ١٩١٧

تأليف جون ريد ـ ترجمة فواز طرابلسي

منشورات دار الطليعة ـ بيروت ـ ص.ب : ١٨١٣

تجربتي الشعرية

بقلم : صلاح عبد الصبور

حديث الشاعر عن تجربته مع الشعر كحديثه عن تجربته مع الحب، كل جميلة بمذاق ، وكل قصيدة للشاعر هي غرام جديد ، يقترب منه وقد نفض عن نفسه اثقال تجربته الغاربة ، كأنه يواجه الشعر للمرة الاولى .

هذا احساسي حين اقدم على الكتابة ، فانا رغم عشرتي الممتدة للشعر قارئا وكاتبا زهاء عشرين عاما ، ما زلت اواجه الابداع بذات القلق والتلمس ، فاذا جادت علي الالهة بالمطلع ـ كما يقول فيولين ـ سعيت حتى استمطرت الابيات التالية له ، ثم اجدني انفصل شيئا فشيئا عن عالم الاشياء من حولي لادخل عالم تصوراتي وانغامي ، وحين تنتهي القصيدة ابدأ في اكتشافها من جديد ، وقد اعيد النقح ، وقد اطوي الصفحات او امزقها ، ذلك حين يستيقظ في نفسي من جديد ذلك الروح الناقد الذي غاب زمنا عن افقي .

وذلك الروح الناقد هو خلاصة التجربة السابقة ، هو ما اكتسبته خلال العقدين من الزمان قارئا وكاتبا .. اين كان مختفيا ؟ لعله يختفي حيث يختفي الحزن الغابر والسرور المنقضي والذكريات الدفينة. ولعله هو الذي يكون نظرتي الذاتية الشعر ، وطموحي اليه ، ولعله هو الذي يتحكم في استقبالي لشعري ، وكل شعر .

واظنني لم ادرك ان الشعر هو طريقي الاول الا في عام ١٩٥٣ ، اما قبل تلك الفترة فقد كنت مشغولا باشياء كثيرة ، كنت احاول القصة القصيرة ، والكتابة الفلسفية على نمط محاورات افلاطون التي قرأتها في مطالع الصبا بترجمة حنا خباز وفتنت بها فتونا ، ولكن في ذلك العام تحددت رغبتي الادبية ، وارتبطت بالشعر ارتباط التابع بالمتبوع.

وانا ممن يظنون ـ وهم قلة ـ ان قول الشعر جدير وحده بأن يستنفد حياة بشرية توهب له وتنذر من اجله . وقد وهبت الشعر حياتي منذ ذلك الامد . وجهدت حتى اصير شاعرا له مذاقه الخاص ، وعالمه الخاص .

ولا اظن ابي فرطت ابدا في تقديم قرابيني للشعر . وقد يكون قد قبل بعضها فجاد علي برضوانه ، او استقل شأني احيانا اخرى فحرمني من جنته ، ولكني لم اتمهل في حجي اليه قط .

وكنت اعتقد دائما ان عدة الشاعر هي رؤية شعرية حية ، وثقافة معاصرة متأملة ، او بعبارة اوضح وجدان يقظ وفكر لماح مدرب . الشاعر بحاجة الى رضا الالهيين الاسطوريين ، وبونيز بوس اله البداهة والاحساس المنطلق والنشوة المجنحة ، وابولو اله الفكر والتأمل والمعرفة ، اما البداهة والنشوة فهي ظاهر القصيدة العظيمة ، ولكن تحت هذا الظاهر باطنا عميقا نافذا .

ولكي يتيقظ وجداني اسلمت نفسي للحياة ، فعلمتني الشم والسمع والتحسس ، والحزن والفرح اللذين يخلعان القلب ، ولا اظن ان تجربة من تجارب الحياة الجميلة قد فاتتني ، حتى تجارب الغيبة في العشق او الفناء في المطلق ، فانا اذكر في سن الثالثة عشرة ان اصابتني نزعة تعبدية طهرية ، وصليت ذات يوم صلاة بدائية استكشفت الفاظها بنفسي حتى رأيت نور الله .

وكما عرفت نور الله عرفت نور الانكار . وجربت لذة ان يحس الانسان بوحدته وتفرده في الكون ، وقد رفعت عنه العناية ، وتولى امر نفسه بنفسه ، كأنه الريح المطلقة الخطى .

ولكي يتيقظ عقلي اسلمت نفسي لعالم الكتب ، وعودت نفسي النهم في القراءة ، وخطف المعرفة وازورارها ، فانا سائح في بحار المعرفة السبعة لا يهدأ مجدافه ولا ينطوي شراعه ، مفتون بالفلسفة ، محب للتاريخ ، مولع بالاساطير ، صديق لعلوم الانسان المحدثة كعلم النفس والاجتماع والانتروبولوجيا .

والفرق بين الشاعر القديم والشاعر الحديث في رأيي ان الشاعر القديم يعتنق موهبته ، اما الشاعر الحديث فعليه حين يطمئن الى النغم في رأسه ان يصنع موهبته . وقد اعددت للشعر الى جوار ذلك كله قدر ما استطعت من المهارة اللغوية . استمددتها من قراءة القرآن والحديث ، ومن التجوال في شعرنا القديم ، ثم قلت لنفسي بعدئذ : يا نفس اكتبي ما بدا لك .

***

ما الشعر ؟

سؤال لو عرف اجابته احدنا لقطع الطريق على القبيلة كلها . لقد ادرك الجميع حتى سادتنا العظماء من امثال شكسبير والمعري اطرافا من جوابه ، ولذلك فلن اتصدى للاجابة الجامعة المانعة ، بل احكي عن الجانب الذي ادركته .

الشعر هو صوت منفعل . انسان يتميز عن الاخرين بقدر ما يتشابه معهم . والانفعال المدرب هو عدة الشاعر . ولست احب لنفسي ولا لاحد من الشعراء ان يكون صوته مندغما ضائعا في الاصوات الاخرى . وعلة الموسيقى في الشعر ان الانفعال عندما يصل الى مداه لا بد له من التنفيم . اليس صياح الطفل حين يدخل ابوه منفوما موقعا . ولامر ما كان النثر الفني بالانفعال غنيا الى جواره بلون من الموسيقى الخفية . وليس الفرق بين الشعر والنثر الا فرقا في نوعية الموسيقى . فموسيقى الشعر تتركز وتتواتر حتى تصبح لونا من « المصطلح » اما موسيقى النثر فهي مطلقة كاطلاقه .

وقد حاولت الشعر اول ما حاولته محاكاة للنماذج التي احببتها. وعندي قدر لا بأس به حاكيت فيه المتنبي . وقدر اخر لا بأس به حاكيت فيه ابا العلاء . ثم قدر اخر حاكيت فيه بعض الشعراء المعاصرين كابراهيم ناجي ومحمود حسن اسماعيل . ولكني رغم اعجابي بهؤلاء الاربعة توقفت فترة من الزمن لاسأل نفسي : ما الشعر ؟ وقد وجدت كلا منهم قد اجاب على جانب من سؤالي . وكان توقفي اثر قراءتي لبعض النماذج من ادب الغرب ، فقد قرأت ريلكة في ترجمة انجليزية ، وقادني الصديق بدر الديب والصديق عبد الغفار مكاوي الى شعر اليوت وقصص كافكا . وتبلبل خاطري . ويئست يأسا مطلقا من شعرنا العربي او معظمه . كنت اسائل نفسي في كثير من الاحيان عن علة اعجابي ببعض النماذج ، واسفه لها ولعها بموسيقاها او بافكارها الدارجة واحاسيسها الشائعة . وقد طالت فترة التوقف حتى جاوزت السنتين . وخرجت منها برتبة عارمة في المحاولة ، على ان احقق كل ما اصبو اليه . وكان ذلك في اعوام ٥٠ ـ ٥١ ـ حيث كتبت عندئذ قصائدي (شنق زهران ـ هجم التتار ـ الملك لك) .

وانا كثير التأمل في شأن الشعر . متعدد المواقف تجاهه . كان الشعر في مرحلة هذه القصائد هو الرؤية العميقة والاحساس الدافىء. ولذلك كان ديوان « الناس في بلادي » غنيا بالانفعال . وفي المرحلة التي تلتها كنت اريد ان اقرب دور المفكر من دور الشاعر . وتمثل ذلك في ديوان « اقول لكم » . ثم حاولت ان اصل الى لون من التمازج والتراضي بين الموسيقى والطلاقة التعبيرية ، وبين الاحساس والفكرة في « احلام الفارس القديم » ولو سئلت عن مدى توفيقي في هذا الديوان لقلت انني استطعت فيه ان اصفي لغتي وانفعالي

ـ التتمة على الصفحة ١٩٩ ـ

تجربتي في الشعر

بقلم محمد الفيتوري

اذا كان الشعر موهبة ، واذا كان مستقبل كل موهبة ، انما يتشكل وفقا لقوانين خاصة ، تفرضها مجموعة الظروف والعلاقات الاجتماعية ، والتاريخية ، المحيطة بصاحبها ، فالذي لا شك فيه ، هو ان ذلك الصبي الاسمر القصير ، الذي ما يزال يلوح في مخيلتي الان، وهو يرفل في اعوامه الاثني عشر ، كان يحمل في قلبه ، وفي عينيه ، احساسا بتفرد ما .. من المبالغة ان اتسرع الى القول ، بان كتابة الشعر كانت هدفا له .. ربما كان الشعر حينذاك ، حلمه الخيالي الغامض ، الذي لم تتحدد معالمه بعد ...

كان قد أتم حفظ القرآن الكريم كله ، عن ظهر قلب ، تأهبا لدخول الازهر الشريف ، كما تقضي رغبة والديه ..

واذكر انه عانى في حفظه كثيرا .. كم من مرة نسيه ، وعوقب على نسيانه اشد العقاب ، من عصا شيخه الضرير السمين .. كانوا يعلقونه من قدميه ، في ((الفلكه)) ــ قطعة من جريد النخل ، مشدود الى طرفيها قطعة من حبل مرخاة عند الوسط بعض الشيء ، بحيث تتسع لقدمي مثله ــ ويأخذ اثنان من انداده ، يقفان هنا وهناك ، في الضغط عليها ، حتى تصير قدماه بينهما ، مسطحتين في وضع متواز ، وتبدأ عصا الفقيه ، حركتها البندولية ، صعودا وهبوطا ، فوق قدميه ، دونما هوادة ، او اشفاق لصرخاته واناته الضعيفة المتقطعة ... ولم يكن ((سيدنا)) يكف عن ممارسة هذه العملية ، الا بعد ان تكون قد تعبت ذراعاه ...

ويعود الصبي الى بيته ، منكسر القلب ، متورم القدمين ، حاملا حذاءه الذي سيظل لبضعة ايام قادمة ، ضيقا عليهما ، تحت ابطيه.. وكان يغيظه كثيرا ، ان امه واباه ، لم يكونا يبديان اقل تذمر ، وهما يريانه في مثل حالته البائسة هذه ، فلقد نذراه ــ وهو طفلهما الوحيد ــ لكتاب الله الكريم ...

وفي مرحلته هذه ، استطاع ان يعثر ذات يوم ، على كتاب ثمين في مكتبة ابيه .. عثر على سيرة عنترة بن شداد .. من يكون عنترة هذا ؟ وراح يلتهم ، بكل ما في روحه من فضول ، وجوع الى الحياة ، صفحات الجزء الاول ، ثم الجزء الثاني .. حتى اكمل بقية اجزاء الاسطورة الشعبية الرائعة ، ومنها عرف ان عنترة فارس لا يشق له غبار ، وانه عاشق لاجمل صبايا قبيلة بني عبس ((عبلة)) وانه ايضا ــ وهذا أهم ــ عربي اسود .. اسود مثله !.. واعاد قراءة السيرة منذ البداية ، حتى انه ليذكر الان ، كيف استطاع عنترة ، الابن غير الشرعي ، لشداد ، ان يفرض ذاته ، وهو الشخص الضائع النسب ، ما بين الحرية والاسترقاق ، في مجتمع الجاهلية المتعصب ، الذي لا سيادة فيه ، الا للاقوى والاشرف والاغنى ، ولا حياة فيه ، للعبيد والمساكين والفقراء : (كر يا عنترة .. ان العبد لا يحسن الكر ... كر وانت حر) .

ووجدت الانفعالات الكثيرة ، الحبيسة ، والمجهولة التي كانت تتماوج داخل رأسه الصغير ، في شعر وقوة وضخامة عنترة بن شداد ــ كما يتخيلها ــ متنفسا لها ...

ثم شعر ان هذه الشخصية ، قد أفرغت لكثرة ما عايشها .. لم تعد تعطيه احلامه ، او تشبع نزوعه ، وكان عليه ان يبحث عن عنترة آخر ، في كتاب جديد .. ووقعت عيناه على رحلة بني هلال من الشرق الى الغرب ، وتعرف على ابو زيد الهلالي سلامة ، والزناتي خليفة ، ودياب ، والاميرة الناعسة ، وكان يجد متعة لا حد لها ، وهو يشترك بخياله ، في المعارك التي خاضوها ، والمشاق التي تعرضوا لها خلال رحلتهم التاريخية ، وكثيرا ما استفزفته رؤية فارس بني هلال الاسمر ، وهو يصول ويجول ممتطيا صهوة جواده ، رافعا رمحه ودرقته ، منشدا في الميدان :

يقـول ابـو زيد الهلالي سلامة
ولا كـل مـن ركب الحصـان خيـال

ومن ثم عرف الطريق الى اشباع احتياجاته الروحية والعاطفية، وقرأ حمزة البهلوان ، والاميرة ذات الهمة، وسيف بن ذي يزن ، وفيروز شاه ، والف ليلة وليلة . ولما لم يجد المزيد منها ، بدأ يتقرب من بعض الكتب الاخرى ، التي تصور انها قد تتضمن شيئا ، يبقي عليه عالمه الخاص ، الذي كان قد شاده لنفسه .. مغامرات شيرلوك هولمز، وطرزان ، وارسين لوبين ، وغيرها من روايات الجيب ، ويبدو انه قد قرأ بالضرورة حينذاك ، اعمالا ادبية عالمية ، مترجمة ضمن هذه السلسلة ، مثل البعث ، وانا كارنينا ، والحرب والسلام ، والام فيرتر وفاوست ، وغادة الكاميليا ، وماجدولين ..

والحق ان اباه ، لم يكن يضن عليه ابدا ، بشيء مما يريد ، فقط حين يتعارض ما يحب ان يقرأه ، مع ما يجب ان يقرأه ، او ان يتهدد مؤهلاته التي لا بد من توفرها فيه ، ليكون احد طلبة العلم الشريف .

وكانت الحرب العالمية الثانية ، تموت اختناقا في ايدي الحلفاء، واسماء هتلر والنازية ، وموسوليني والفاشية ، وستالين والبلشفيك، وروزفلت وتشرشل والميكادو اشبه برموز والغاز ، تتحدى مداركه ومستوى فهمه ، بكل ما تنطوي عليه ، من معان ودلالات .

ماذا كانت تعني الحرب بالنسبة له ؟ لا اكثر من الخوف ، من الشيء المجهول ، من الموت ..

وشهدته حواري الاسكندرية وازقتها ، وهو يتدحرج مع الهاربين الى الخنادق ، لينزوي معهم بعيدا عن نيران الطائرات المغيرة ، التي طالما روعت سكان المدينة الجميلة الهادئة ، خلال غاراتها الليلية المتواصلة ، وطالما احالت احياءها ومبانيها ، الى خرائب وانقاض .

وانتهت الحرب .. ودخل الازهر الشريف .. ومارس انماطا من العلاقات والمعارف ، لم يكن قد الفها من قبل ..

وفي زحام الفية ابن مالك ، ومشاكل النحو والاعراب ، وقضايا الفقه والشريعة ، ومجادلات الفلاسفة والمتكلمين ، احس بالغربة والحزن ، يهبطان على روحه ، ويؤرقان ايامه ولياليه ...

وكتب حينذاك ، شيئا عن الحزن والغربة ، عرف فيما بعد ، انه ليس الا مقدمة الشعر .

كان هذا الشيء الذي كتبه ، وقرأه على نفسه ، صورة طبق الاصل ، لما قرأه لشعراء اخرين ، يسكنون بطون الكتب ، ويطلون عليه ، من شرفات العصور .

طرفة بن العبد ، والنابغة الزبياني ، والمهلهل بن ربيعة ، وزهير ابن ابي سلمى ، وعنترة بن شداد .. لكم كان سعيدا ، وفخورا ، حين اكتشف ان فارسه وشاعره الاسطوري ، احد اولئك الذين بلغ من عظمة مواهبهم ، وسموها ان كتبت قصائدهم بماء الذهب ، وعلقت على ستائر الكعبة ، وسميت لذلك بالملقات .

وقال له احد شيوخه ، وقد لمس شغفه بقراءة الشعر ، ان شعراء المعلقات ، ليسوا نهاية الشعر .. هناك شعراء الصعاليك ، ولا تنس ان الشعر ازداد عذوبة ، وجمالا ، بعد ان باركته حضارة الاسلام .

واعجبه من هؤلاء ، الشريف الرضى ، وتلميذه مهيار الديلمي ، والمعري ، وابو تمام .. ورفض البحتري ، وابا العتاهية ، وابا نواس، وخلال قبوله ورفضه ، كان يمارس كتابة اشيائه الخاصة ، التي كان يسميها شعرا ، ويحرص على ان يضمنها دفتي كتاب .. وكما خيل اليه ، انه شاعر ، خيل اليه انه عاشق ..

وكتب اكداسا هائلة ، من الصفحات ، في بكاء حبه اليائس ، وشكوى زمنه الغادر ، ورثاء شبابه الغض ، الذي زحفت عليه الشيخوخة قبل الاوان .

وكبر قليلا ، وكبرت معه اشياؤه الخاصة ، احساسه بالحزن والغربة والشعر ... وكان يزداد انطواء على نفسه ، كلما ارتطمت عيناه ، بحقيقة جديدة ، من حقائق الحياة ...

(*) .. « دائما تحاصرني عيونهم .. تتابعني حيثما اسير .. انهم يسخرون مني .. لقد فضحت سر اللغز .. سر مأساتي .. انني قصير ، واسود ، ودميم .. »

هكذا كان يقول لنفسه ، كان يفضح نفسه فقط ، امام نفسه ، وبعد ذلك بأعوام ، استطاع ان يتأوه :

فقير اجل .. ودميم دميم بلون الشتاء .. بلون الغيوم
يسير فتسخر منه الوجوه وتسخر حتى وجوه الغيوم
فيحمل احقاده في جنون ويحضن احزانه في وجوم
ولكنه ابدا حالم وفي قلبه يقظات النجوم

لقد كان اليما ، مطعونا ، الى حد الاختناق ...

ولم يكن يفوقه ، في احساسه الرهيب العمق الالم ، وقتامة الواقع ، الا شاعر واحد ، خلاق جميع الشعراء العرب ، الذين قرأ لهم فيما بعد ، شاعر واحد ، او شاعران على الاكثر .. الاول اسمه ابو القاسم الشابي ، والثاني اسمه الياس ابو شبكة ... لقد اعطاه الاول ، نموذجا كاملا ، لقدرة الشاعر الصادق ، في التعبير عن تجربة الالم ، وفلسفة الايمان بالموت ..

واذا ما استخفني عبث الناس تبسمت في اسى وجمود
بسمة مرة كأني استل من الشوك ذابلات الورود

بينما اعطاه الشاعر الثاني ، نموذجا رائعا ، للقدرة على قهر الموت ، والاستعلاء عليه :

وحملت تابوتي ، وسرت بماتمي

« لا تستطيع معدتي هضم اشعار المازني والعقاد ، او حتى استاذهما عبد الرحمن شكري .. اما مدرسة ابولو ، فلا اجد في قصائد رائدها احمد زكي ابو شادي حاجتي .. صحيح ان لديه من الصور والاخيلة ما يشوقني .. ولكني اجد الصورة والموسيقى ، مضافا اليهما روح الشعر ، في القصائد القليلة التي قرأتها للهمشري ، والتماني يوسف بشير ، انهما ويليهما ابراهيم ناجي ، وحسن الصيرفي ، ومحمود اسماعيل ، وصالح جودت ، هم الشعراء .

وعلى صفحات الاعداد القديمة التي عثر عليها من مجلات ابولو، والامام ، والمقتطف ، واللطائف المصورة ، والمجلة الجديدة ، التقي بجبران خليل جبران ، ونسيب عريضة ، وفوزي المعلوف وايليا ابوماضي وميخائيل نعيمة ، ونعمة قازان ..

« ان النكهة التي احسها في فمي ، عقب قراءتي لقصائد الشعراء المهجريين ، تحيرني .. هل هي نكهة الجديد ؟.. هل هي امتزاج الجديد الحقيقي بالقديم .. »

« التأملات الفلسفية العميقة ، لجبران على وجه الخصوص .. أن كتابه « النبي » يجعلني أحس بتقارب شديد ، بين افكاره وافكار نيتشه ، في « هكذا قال زرادشت » .. ربما كان جبران اكثر انسانية ، واصفى شاعرية ايضا .. انه غريب ، وحزين ، ومكسور القلب مثلي .. صورته التي رسمها لنفسه توحي بذلك .. ما اعظم ان يكون الانسان شاعرا ورساما ، في وقت واحد .. »

وتوقف طويلا عند جبران ، في « العواصف » و « الاجنحة المتكسرة » . وحين وقعت في يده قصيدته الطويلة « المواكب » فرح كالاطفال . وضمها الى صدره ، واخذ يتعبدها في خشوع ..

« قد يأتي اليوم ، الذي اصبح فيه شاعرا ذا فلسفة ، ووجهة نظر في الكون ، وفي الحياة مثله .. جبران ذلك النبي الضائع ، ان حبي له لا يعادله حبي لنعمة قازان »

لماذا يا ترى ؟ هل لان جبران كان مسيحا يتعاطف مع المساكين والعبيد والضعفاء ؟ وهو يحس انه واحد من هؤلاء ؟..

وكتب في مذكراته ايضا : « لقد عثرت اليوم على شاعر فرنسي ، اسمه بودلير ، طاش له صوابي .. قدرته غير عادية على خلق الصور، وتجسيد الرموز ، وتكثيف الحقائق والاوضاع اللامتناسقة فنيا ... انه ينفذ الى ما وراء الاشكال والمظاهر .. الاروع من كل ذلك انه كان يحب جارية سوداء ، اسمها جان ديفال .. شاعر ابيض يحطم الفوارق بطريقته الخاصة .. سيان كان من اجل الجسد .. او من اجل الشعر ... ان شارل بودلير يقترب مني اكثر فأكثر ، كلما تغلغلت في ديوانه « ازهار الشر » .. انني انتمي الى بودلير بصلة ما .. »

وفي عام ١٩٤٨ ، كتب اول قصائده ، انطلاقا من الخط النفسي الذي قدر عليه ، ان يكون خطا فكريا ، فيما بعد ، وان يمضي فيه طويلا ، وان يكون اتجاها ومسارا له ..

كتب « الى وجه ابيض » :

الآن وجهي اسود
ولان وجهك أبيض
سميتني عبدا ..!

وتنهد مرتاحا ، لاول مرة ، فقد كان عبئا كل ما كتبه قبل ذلك ، ما نشر منه وما لم ينشر .. كل ما كتبه قبل ذلك ، كان اجهاضا لميلاد تجربته الانسانية الحقيقية ، التي يريد أن يتغنى بها ، وان يعلنها على الجميع ...

« أريد ان اكون صادقا ، مع نفسي اولا ، وان يكون ما اكتبه هو ما أحسه .. غير انني اطمح الى ان اتعرف على الوجه الاخر لشقائي .. ولا تحسبوا انني وحدي فمعي الملايين .. »

« ذات مرة التقيت في الخرطوم ، باحد مواطني ، ولم اكن قد رأيته من قبل ، وليست لي به سابق معرفة ، انا لا اذكر اسمه الان .. وحين قدمني باسمي اليه صديقي الفنان عثمان وقيع الله ، ادهشني بثورته المفاجئة ، في وجهي .. قال كلاما كثيرا ، ما تزال تطن في اذني منه هذه الكلمات :

ـ ما هذا الشعر الذي تكتبه يا اخي .. لقد فضحتنا ... انني اكرهك ... »

« لقد اردت بالفعل ان افضح واقعنا الاسود .. ولن أسمح لنفسي ، بتزييف هذا الواقع ..

وكان قد اصدر ديوانه الاول « اغاني افريقيا » ..

« ان محمود امين العالم اكثرهم جدية ، واحساسا بمسؤولية الناقد .. انني احمل له قدرا كبيرا من المحبة والتقدير ، غير انني اثق تماما ، في خطأ موقفه من هذا الاتجاه الشعري الجديد ، الذي تبلورت ملامحه ، في ديواني « اغاني افريقيا » .. هل الخطأ في الموقف ، أم ان الخطأ في التفسير ؟ في النظرية ام في التطبيق ؟..

قلت له ، وانا أناقشه في مجلة الاداب : « انك لا تستطيع ان تتعمق مأساتي .. لانك لا تستطيع أن تعيش تجربتي ..

قال لي .. « انها مأساتك الخاصة ، تسقطها على قارة باكملها.. على افريقيا .. انك شاعر مريض .. »

قلت له : المرضى كثيرون .. وانا واحد منهم .. كلهم يعانون مثلي .. اقصد كلنا .. ثق فيما اقول . وانا اريد ـ في هذه المرحلة من شعري ـ ان اتطهر من مرضي .. من مأساتي الخاصة ... بأن ابوح بها .. لقد جرؤت على ان اكسر الصدفة من الداخل ، ولذلك تجدني اغني مبتهجا بمادة حزني :

قلها لا تجبن .. لا تجبن
قلها في وجه البشرية

ـ التتمة على الصفحة ١٩٩ ـ

(*) جميع الفقرات الموضوعة بين الاقواس ، والواردة في هذا المقال مأخوذة من مذكراته الخاصة ...

خواطر حول تجربتي الشعرية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢ ـ

كيف يتعانق الزمن والابد ، ويصيران واحدا في لحظة الابداع . حين نقرأ شعر ذي الرمة في حبيبته مية ، او نقرأ شعر المتنبي في طموحه وغربته ، ينقلنا الشعر هناك الى الحبيبة في كل وقت ، لا الى مية وحسب ، وينقلنا الشعر هنا الى طموح الانسان وغربته في كل وقت ، لا الى طموح المتنبي وغربته وحسب . انه ، هنا وهناك يجعل من اللحظة ابدا ، ويشيع الابد كله في لحظة واحدة .

ـ ٦ ـ

هكذا وجدتني انفصل ، عفويا ، عن الماضي ـ تقليدا ونقدا : عن مجموعة القيم والمفاهيم والاراء التي لم تكن ترى من تراثنا وشخصيتنا الا الاشكال الخارجية والقوالب ، والتي سادت مناخنا الشعري ، ووجهت شعرنا حتى احالته في العصور الاخيرة ، الى تمارين في الوزن ، او في الزخرف واللهو ، أو في كل ما يجعل الحياة فقيرة ضيقة بحجم دينار الامير او الحاكم .

وقد اتاح لي هذا الانفصال ان احسن فهم الماضي وأزداد ارتباطا بينابيعه الحية ، وان أحسن فهم نفسي ، وفهم تراثنا : أتاح لي ان أرى كل شيء في ضوء جديد . فتجاوزت الماضي الى المستقبل ، والمعلوم الى المجهول ، والواقع الى الممكن وما وراءه . وفي حميا انخطافي بالمستقبل ، اقتنعت الا اكتفي بالبحث عما يكمل العظيم في الماضي ، وانما يجب ، الى هذا ، ان ابحث عما يتفوق عليه . ولم اعد ممن يجدون الفردوس في الماضي ، وانما صرت ممن يرون في عظمة الماضي دليلا على ان المستقبل سيكون أكثر عظمة .

ومنذ هذه اللحظة اخذ يتضح لي معنى صلة الشاعر بتراثه ، ومعنى التراث من الوجهة الابداعية : ليس الشاعر مرتبطا بمادة التراث المكتوبة ، قدر ارتباطه بما وراءها ، أي بالاعماق والنسوغ الاولى التي احتضنت تلك المادة وأدت الى وجودها . فهذه المادة المكتوبة جامدة : كتب ، أفكار ، آراء .. تدخل في ثقافة الشاعر ، لا في ابداعه . فهو بابداعه ، مرتبط ، او يجب ان يرتبط ، بروح أمته ذاتها ، بينابيع حياتها ، بمثلها وتطلعاتها .. حيث البذور الاولى والاصول ، والاسرار ، والرموز ـ حيث الحنين والحركة والتوتب ، وحيث البراءة والصبوة ، وحيث التموج والتنافض والغرابة ، وحيث البكارة الدائمة : حيث الحياة ولانهائية الحياة ...

من يتكلم بصوت الكتب ، وانظمتها وقواعدها ، لا ينقل الينا غير الصدى الباهت للاصوات التي تركتها . لكن من يتكلم بصوت الينابيع الاصلية في اعماق شعبه ، ينقل الينا ملايين الاصوات ، ويرفع مصير كل فرد منا ، الى مستوى مصير الانسانية .

ليس صوت المتنبي صوت شخص واحد اسمه احمد . انه صوت شعب وعصر . انه رسالة . لهذا يهز المتنبي اعماق روحنا . فهو ، شأن كل شاعر عظيم ، يلامس بشعره عمقا انسانيا تختلج فيه جميع الكائنات اختلاجة واحدة ، وتغيب فيه وحدة الفرد في لقاء مع الانسانية كلها .

هكذا يقودنا الشعر ، شأن النبوة ، الى عالم يفلت من حدودنا ، وراء حدودنا . وفي هذا عظمة الشعر وامتيازه . وفي هذا يكون الشاعر صوت امته وصوت عصره : ليس العبقري واحدا ، بل كثير .

وهكذا نرى كيف ان التراث المكتوب ، مهما يكن غنيا ، لا يصح ان يكون ، بالنسبة الى المبدع ، اكثر من اساس ثقافي .. يؤكد به التجاوز والتخطي لا الانسجام والخضوع . ان رؤيا الشاعر المبدع لا تكمل القيم والقواعد وحسب ، أيا كانت ، وانما تتجاوزها . انها أغنى منها ، واشمل واسمى .

ـ ٧ ـ

كذلك تغير ، بالنسبة الي ، معنى الشعر : لم يعد وظيفة ذهنية أو فيضا عاطفيا ، او جزءا من البلاغة والبيان ، او وصفا ، او طربا للمتعة او التسلية او التعزية ، او نجاوى قلبية حزينة او فرحة ، أو تأملات فكرية وفلسفية . صار الابداع الشعري ، لي ، وسيلة لاكتشاف نفسي ، واكتشاف الانسان والعالم . صار قائما على الرؤيا ، والنفاذ الى الجوهر ، والاشراق . صار فعالية جوهرية تتصل بوضع الانسان ومستقبله ومصيره الى المدى الاقصى . صار فعلا يقوم به الانسان بكل كيانه ، وابداعا كابداع الخالق . صار سفرا لا ينتهي ، خارج الايام الجارية ، في المستقبل ، عبر اعماق الكائن وابعاده .

والشعر ، لي ، اشراق في ظلام العالم : ان حياة بلا شعر ، انما هي حياة بلا عدالة ولا حقيقة ، ولا حرية . لهذا كان الشعر نوريا ، بالضرورة والطبيعة . وهو ثورة دائمة التجدد والتحول ، لانه اعادة نظر دائمة ، وبفجر وامتداد فيما وراء الحدود والانظمة والقوالب . انه اشارة في الطريق الى المستقبل ، خلال غابه المشاعر والاحلام والرموز ، وبرق يضيء العالم .

ـ ٨ ـ

بدل القصيدة ـ الحكاية ، او القصيدة ـ الافكار ، او القصيدة ـ الزخرف ، او القصيدة ـ الوصف والموضوع الخارجي ، أقيم القصيدة ـ الدفعة الكيانية ، القصيدة ـ الحدس والدلالة ، القصيدة ـ الرؤيا . وهذه قصيدة تنمو في اتجاه الاعماق ، في سريرة الانسان ودخيلائه ، وتنمو افقيا ، في تحولات العالم . وهي لا تصدر ، صدفة ، عن « مزاج » او « وحي » ، بل تصدر بدفعة واحدة ورؤيا واحدة ، وحدس واحد .

هكذا ، بدل القصيدة المغلقة ، المنطوية عى نفسها ، التي لاتفسر الا بطريقة واحدة ومنظار واحد واتجاه واحد ، أبشر بالقصيدة المنفتحة الزاخرة بممكنات كثيرة تتفجر في جميع الاتجاهات . ولئن كان للقصيدة المغلقة شكل مغلق بالضرورة ، فان للقصيدة المنفتحة شكلا منفتحا بالضرورة . هكذا بالتالي : بدل الشكل الشعري الواحد ، ابشر بالشكل الكثير : سيكون لكل قصيدة في المستقبل شكلها الخاص .

القصيدة المنفتحة ذات الشكل المنفتح تتضمن مبادهات تغير باستمرار مقاييسنا الشعرية والجمالية : من هنا اعارض الثبات بالتحول والمحدود باللامحدود ، والشكل المغلق الواحد المنتهي ، بالشكل المنفتح الكثير اللانهائي ، واعلن ان الشعر تجاوز حدوده النوعية القديمة ، وصار عالما فسيحا من الاوضاع والحالات الروحية والتعبيرية فيما وراء الحد والنوع ، وفيما وراء كل قاعدة وكل تقليد .

انني ارفض المغلق المنتهي . ارفض الطرق الشعرية التي تبحث عن حلولها في الفكر ، وتخضع القصيدة لبنية العقل ـ لحدوده وقواعده والزاماته المنطقية .

الطريق التي ارسمها ، واحاول ان ارسخها في الشعر العربي ، حدسية ، اشراقية رؤياوية . وهي تبحث عن الحلول في فيض الحياة وغناها ، في تفجر ممكناتها وتنوعها . وهي تنبني الانسان بجحيمه وجنته ، بشياطينه وملائكته ، بضعفه وقوته .. لا « الفكر » او « الايديولوجيا » او « الواقع » او « الحضارة » : تنبني الانسان لا النظرية ، والحياة لا مقولات الحياة .

لهذا لا اعرف التوقف عند الابعاد المعروفة ، وانما اخلق باستمرار مسافات جديدة ، مالئا قصيدتي بشهوة البعد : شهوة امتلاك الاعماق والاعالي ، شهوة الفعل الحيوي ، منتصرا او غير منتصر . واشكال فصائدي اهليلجية ، لولبية ، اسطوانية ، لكي توحي بمنحنيات تحمل النفس وتمضي في حركة تتسع ولا تنغلق .. تكثر الاشياء والعالم والناس ، بحيث توحي بالدوار ، وبان اللانهاية تختبيء في حجر او شجرة .

اللامحدود ، اللانهائي : هذا مجالي ، هذا بيتي . والشعر هنا سيال ابدي المفاجآت . والاشكال الشعرية ، هنا ، بلا نموذج : كل

شكل كاف بذاته ، نموذج ذاته . والكائنات ، هنا ، تتدافع وتتواكب في المد الخلاق ، صوب المجهول .

— ٩ —

بدءا من الواقع ، ينفتح شعري على الممكن : أغني الانسان كما يليق به ان يكون ، كما يقدر ان يكون ، او كما اراه ، لا كما هو بين جدران الواقع . الانسان واقع اكثر من الواقع ... وليس واقعه اليومي الا عتبة للدخول الى واقعه الممكن ، بل ان واقعه اليومي يصبح نوعا من السقوط ، حين تزداد الهوة بين قدراته ومنجزاته .

انني من الايمان بالانسان ايمانا لانهائيا بحيث انني قد لا اري احيانا في واقعه المحدود ، بالقياس الى ممكناته اللامحدودة ، غير السقوط والفشل واليأس .

هذا الولع بتحقق الممكنات يدفعني الى الحياة خارج أيام الناس العادية . وكثيرا ما احسبها عدوا ، فاتسلح ضدها بالشعر وفعله — الفعل الوحيد الذي تمتزج فيه الوداعة بالعداوة،والتراجع بالهجوم، واتسلح باللغة وايقاعها بالهيام والحلم والهاجس ، بالواقع وما فوق الواقع . لكن لغاية واحدة : ان اخلق الواقع اللائق ، ان اخلق حالة أتجاوز بها التناقضات ، حيث تستيقظ طاقات الانسان للتآلف مع الطاقات الاخرى ، من اجل بناء عالم جديد ، وكل انساني واحد . وكثيرا ما أخلق هذه الحالة بغضب يوصلني حتى الى الانفكاك عن الاخر لشدة التعلق به ، والى رفضه لشدة البحث عنه واللهفة اليه.

هكذا اغني صورة الواقع كما امثلها في نفسي ، اغني صورته الاتية ، واغني التغير الذي يحمل الصورة الاتية .

من هنا ينفذ الشاعر برؤياه الى ما وراء قشرة العالم ، وبقدر ما يغوص في اعماق العالم ، يخلق ابعادا انسانية وفنية جديدة ، وترسخ في نفسه ، محل الصورة الواقعية المحددة ، صورة الواقع كممكن ، كابداع وحركة وتكوين . ومن هنا يبقى الشاعر سائرا في اتجاه المستقبل ، موسعا حدود ابداعه ، باحثا عن الممكن اللانهائي. وكما ان صورة الممكن تتحرك امام الشاعر فيتغير مستمر ، كذلك يصبح الشاعر متحركا يسير بسهولة وحرية على طريق الابداع ، ويصير وجها لوجه في تواصل مع حركة الكون في الاغوار الخفية التي تغذي ينابيع التغير .

هذا السفر الى ما وراء الواقع لا يعني هربا من الواقع . الاقتلاع هنا يخبىء حنينا الى المزيد من التجذر . الهجرة هنا عتبة ثانية الى العودة والسفر اياب اخر .

انني لا ابحث عن الواقع الاخر ، لكي أغيب خارج الواقع فيالخيال والحلم والرؤيا . انني أستعين بالخيال والحلم والرؤيا لكي اعانق واقعي الاخر ، ولا اعانقه الا بهاجس تغيير الواقع وتغيير الحياة . فليس الواقع الذي اتطلع اليه ، الغيب المنفصل التجريدي ، بل الممكن الذي يختزن لانهائية الواقع .

— ١٠ —

كل واقع نتجاوزه يوصلنا الى واقع اخر أغنى واسمى . هذا البحث عن الواقع الاخر ، عن الممكنات ، هو ما يعطي للكشوف الشعرية فرادة الابداع العالي . ففي هذه الكشوف يتعانق المرئي مع اللامرئي والمعروف مع المجهول والواقع المحسوس مع الحلم . وهكذا تكتمل رؤيا الشاعر في جدلية الانا والاخر ، الشخص والتاريخ ، الذات والموضوع ، الواقع وما فوق الواقع .

والاتجاه الى الممكنات ثورة دائمة ضد التقليد والثبات .

انني أطمح الى ان أبقى ثورة دائمة ضد التقليد — الثبات . أعارضه بحمى ثانية ، بهيام اخر ، بهوى مغاير . اقتلع الانسان وارميه في بوتقة الطاقة والتحول حيث لا يعود له يقين غير يقين الانسان — الكل والكون ، او دور غير ان يظل خميرة اليقظة الدائمة ، اقتلعه ، انزله في اعماقي حيث الموقد المتأجج الذي تنصهر فيه قوى التاريخ ومآسيه واطرافه، وحيث لا يبقى غير النسغ الذي يحرك ويحيي.

والممكنات كائنة في المستقبل . ومن هنا اعيش واكتب مأخوذا بالمستقبل . وهاجس المستقبل هاجس صيرورة واستباق ، هاجس تحول .. التحول وطني الشعري. والتحول يفترض الذروة والهاوية : كل ذروة جزء من الهاوية وامتداد لها . كل هاوية جزء من الذروة وامتداد لها . الذروة والهاوية ، الماء والنار ، الرفض والقبول وجهان لحركة واحدة . والانسان جدل دائم بين حياته وموته ، بين بدايته ونهايته ، بين ما هو وما سيكون . وانا اقيم ، شعريا ، في احضان هذا الجدل المتحول شاهدا ، باحثا ، رائيا . الائم بين شخصني وفرادتي من جهة ، وكلية حضوري الانساني منجهة ثانية، بين الشخصي والكوني ، بين الذات والتاريخ : أريد ان اكون نفسي وغيري ، الزمان والابدية ، في آن .

غير ان المستقبل يظل مستقبلا . وانا ، كباحث عنه ، ابقى دائما قبله ، ولا استطيع ان ابلغه . ومن هنا الحسرة الخانقة : حسرة خلاق يشير الى مستقبل يعرف انه لن يدركه . كأنما يشير الى شيء يملكه يطلع من عينيه واعماقه ، الا انه يظل بعيدا ، يظل امكان حضور سياتي ، لكن ليس الان . وفي انتظار مجيئه ، أشعر كأنني خارج الزمن في حالة ليست زمنية ولا ابدية .

ومن هنا يحدث ان ابدو غامضا ، متناقضا ، تتعانق في كلماتي ومشاعري النار والماء ، حتى ليخيل للكثيرين ان قصائدي كأمواج البحر يمحو بعضها البعض الاخر .

— ١١ —

وقف اسلافنا عند مظاهر الطبيعة واشكالها الخارجية ، وكان هذا طبيعيا ومن حقهم . اما اليوم فان قلوب وارثيهم تخفق في حنين صوب الاعماق والجذور ، صوب الينابيع الاولى ، وهذا من حقهم . ولقد نقل اسلافنا بشعرهم الاشياء المرئية نقلا رائعا ، ونحن اليوم نحاول ان نكملهم ، فننقل بشعرنا الاشياء الخفية ونجعلها مرئية واضحة .

كان الابداع لدى اسلافنا يقوم على انتقاء موضوعات في حدود الوعي الانساني العام ، تنبثق من اهتمامات الناس ومشاكلهم وافراحهم وآلامهم . وكانت حساسية الشاعر ترفعها الى مشارف روحيته ، وتضفي عليها شكلا فنيا واضحا . غير ان موضوع الابداع اليوم ، بالنسبة الي على الاقل ، ليس اليفا لدى الناس . بل ان جوهره قد يبدو غريبا عنهم او عن معظمهم ، كأنه ياتيهم من اعماق العصور او من كوكب مجهول . يطرح امامهم تجربة تصدمهم ، تفاجئهم، تدهشهم. تتجاوز القيم المألوفة والاشكال المكرسة . تحيرهم ، وتزعزع معطيات فهمهم وحساسيتهم .

ولئن كان الابداع لدى أسلافنا لا يتجاوز الحدود الانسانية الواقعية ، فهو اليوم يقودنا الى عوالم ثانية ، الى الممكن وما وراءه ، خارج الحياة اليومية، في مناخ من الاحلام والافراح والحسرات والمشاعر والرؤى الغارقة في قرارة الروح .

في هذا ما يفسر اتصالي بالصوفية : النسم المبثوث في العالم، — حيث التجربة انبثاق كوني ، طوفان يغسل الواقع ، ويشيع الحياة والحلم في المادة ، فتصرخ الاشياء وتتآخى ، ويصير الحجر سرير عاشقين . حيث العودة الى الواقع الاصلي الاول ، فلا يعود الانسان يشعر انه منفصل عن العالم الذي يشارك فيه ، ولا عن الاشخاص الاخرين الذين يشكلون معه كلا واحدا . بهذه العودة تمحي الحدود بين الانا والاخر ، بين الذات والموضوع ، وتنفتح العالم . هكذا تؤالف الرؤيا الشعرية بين الاطراف وترد الكثرة الى الوحدة ، فتتمازج اشياء العالم ، ويتوحد اي شيء مع اي شيء : يصير الحجر ماء ، والعصفور شجرة والشجرة نهرا .

هذا كله ليس غريبا ، بفضل التصوف ، عن حياتنا ولا عن تراثنا ولا عن روحنا . انه اليف عريق نكاد نشمه مع الهواء . انه مناخ يبعدنا عن المذهبيات الضيقة ، ويرمينا في افاق النشوة والانخطاف، افاق الانسان .

وفي هذا مقاييس لفهم الشعر والانسان تختلف عن المقاييس التي تقدمها الحضارة الغربية اجمالا . فهذه مذهبية ، منطقية ، تحليلية . اما مقاييسنا فحدسية انبثاقية اشراقية .

— ١٢ —

من هنا غنائية الصيرورة والتحول التي أبشر بها واطمح الى

ان تكون كونية البعد والرؤيا ، تجرف التناقضات من كل نوع ، وتصهرها في بوتقة هدير واحد : الريادة التي تكتشف المجهول في حركة التحول والصيرورة ـ الريادة التي تضيء الحاضر والمستقبل ، وتضيء الانسان ومصيره ، الريادة التي تعبر عن طاقة الانسان الاتي ، وترسم حركته وفعله ، وتنبىء بعالم يصير شعرا : طاقة انسانية واحدة تبدع وتتخطى، وايقاعا انسانيا واحدا .

هذه الغنائية نداء يعلو عميقا آسرا ، كأنه يتدافع من اطراف العالم الاربعة . انها تحيل العالم الى شبكة من الاشعاعات وقوى الخلق ، وتشعرنا بالنبض الكوني الهائل . في كل قصيدة غنائية ، من هذا المستوى ، نتذوق طعم المستقبل ، وطعم العظمة الانسانية . انها نواة واقعية مسكونة بالعالم الشامل ، مشحونة بطاقات تتموج كما لو انها تريد ان تبلغ تخوم اللانهاية .. كما لو انها تريد ان تعانق غيرها لتكتمل بغيرها ، ولا تكتمل الا بالكون كله .

هذا ما يعطي لهذه الغنائية نفس النبوة التي تتسامى بالناس ، حيث نعمة الانخطاف ، وتهيام الجسد والروح والضوء واللغة والايقاع والمشاعر ، في عالم غريب آسر جديد .

هذه الغنائية هي الواقعية الانسانية الحية المحيية ، وهي التعبير الاسمى عن تحقق الانسان ، الواحد والكل ، الكون الصغير والكون الكبير . انها تتيح لنا ان نؤلف ، فيما وراء المكان وتوازنه الهندسي ، أشكالا في الزمان وفق تموجات الايقاع واطرادها .

وهي تتلاقى بالصوفية : كل قصيدة توحي بالحضور الشامل ، تجعلنا نحيا هذا التضامن مع الكل ، هذا الهيام باللانهائي ، هذا التفجر الاني الينا من الابعاد . وفي هذا ينضج الشعر الرؤياوي المنفتح على اللانهاية في عصر رؤياي منفتح على اللانهاية .

هكذا يصير الشعر سحرا : يحني العالم ، يهز التاريخ ، يخض الايام ، يصير اصابع سحرية تلتقط الاشياء وتحولها على هواها . هكذا يبتعد الشعر عن الجمود في واحات الماضي ، ويصير لهبا وتحولا، وتترك الفراديس الضائعة مكانها الى المستقبل وفراديسه الآتية .

— ١٣ —

ربما يكمن الغموض الذي يشكو منه البعض في طبيعة هذاالاتجاه ذاته . بالاضافة الى ان طبيعة الشكل الشعري الجديد تزيد، بالضرورة في هذا الغموض .

انني ضد الوضوح الذي يجعل من القصيدة سطحا بلا عمق . انني ، كذلك ، ضد الابهام الذي يجعل من القصيدة كهفا مغلقا .

ان زهرة اكملت تفتحها تبهج ، لكنها لا تغري . الشيء الذي توضح : أي لم يعد يخفي الا الوضوح ، ولم تعد له طاقة الا طاقة الوضوح ، يفرغ من الشعر . الشعر يكون حيث العالم في مثل حياء الحجر وصمته ، جاهز ، كل لحظة ، لكي ينغلق على نفسه ، او يتغطى. العالم الشعري الحقيقي هو العالم شبه الصامت المكشوف المحجوب في آن .

ولئن كان الوضوح طبيعيا في الشعر الوصفي او القصصي او العاطفي الخالص ، لانه يهدف الى التعبير عن فكرة محددة او وضع محدد ، فان هذا الهدف لا مكان له في تجربتي . فانا لا انطلق من فكرة واضحة محددة ، بل من حالة لا اعرفها ، أنا نفسي ، معرفة دقيقة ، ذلك انني لا اخضع في تجربتي للموضوع أو الفكرة او الايديولوجيا او العقل ، او المنطق . ان حدسي ، كرؤيا وفعالية وحركة ، هو الذي يوجهني ويأخذ بيدي .

وانا ، في تجربتي الشعرية ، هاجس اكتشاف ، لا هاجس تزيين وتجميل . هذا يقذف بي في جميع الاتجاهات حتى الاطراف القصوى، ويغير علاقتي باللغة : لا تعود اللغة وسيلة لاقامة العلاقات اليومية بيني وبين الاخرين ، وانما تصبح وسيلة لاقامة علاقة بين فضاء أعماقي وفضاء الابعاد الذي اتطلع اليه . هكذا أحيا بعيدا ، لكن بعد الافق : اليفا غريبا في آن .

وهناك اللغة ، أي الكلمة . الكلمة ، بالنسبة الى الغربي، مجموعة متآلفة من الاصوات التي تدل ، بالاصطلاح ، على واقع او شيء ما . أما الكلمة العربية فصورة صوتية حسية لاشياء الطبيعة . والعلاقة بين معناها ولفظها تقوم اما على اقتران الصوت بالشيء ، واما على اقترانه بالحدس . فاللغة العربية تخضع في نموها وتطورها للتجاوب بين الصورة الحسية والحدس .

واللغات الاوروبية تقوم على ترابط سببي ، فهي لغات منطق واصطلاح وعادة ، اما اللغة العربية فلغة انبثاق واشراق ، لغة بصيرة ووميض وايحاء .

أشير الى هذه الخصائص في اللغة العربية ، كما نستشفها من دراسات ابن جني ، اللغوي الكبير ، لاشير الى ان لغتنا العربية ، شعرية في الدرجة الاولى ، أي شخصية الى حد كبير : نفلت من المصطلحات والتحديدات المنطقية وتنبجس وتتفجر في حركة الاعماق. وفي الشعر ، في الابداع الشعري يصل غنى هذه اللغة الى اوجها ، وتصبح غابة شاسعة كثيفة من الايقاع والايحاء والتوهج لا حد لابعادها الشفافة . فتفرغ الكلمات من معانيها الموضوعية ، الموجودة مسبقا في المعاجم او على الالسنة ، وتتنوع دلالاتها ، وتختزن ممكنات من المعاني ، تكثر او تقل ، بحسب سياقها وترابطها بغيرها وارتباطها بالحدس الشعري والرؤيا والحلم والمشاعر والذاكرة والحالات الروحية المتنوعة ، وبحسب الاضاءة وزواياها ، والرؤية وابعادها .

لهذا كله يقتضي فهمها درجة عالية من العمق والشفافية والحساسية وغنى الروح ...

وانا ، فوق ذلك ، لا أعيش في زمن رياضي ، مجرد ، جامد ، ولا اعيش في الماضي . انني اعيش في مسافة عجيبة ابدية التجدد والتحول ، في هذه اللحظة ـ الحركة التي تنبثق خلالها مفاجآت المستقبل: تتحول الاغصان الى براعم ، ويتفجر الينبوع ، وتطير الاجنحة.

بمعنى اخر : لكل اثر شعري بعد تاريخي . فهو متحرك لا يفهم فهما حقيقيا ، اذا نظر اليه كأنه نتاج جامد معلق . وقارىء الاثر الشعري العربي الجديد ، لا يقرؤه بعين الماضي وحسب ، بل يقرؤه الى ذلك ، بروحه . وفي هذه الحالة يجرده من حركته ، من تاريخه وزمنيته ، كأنما يعتبره حجرا قذفته أمامه ، أيد مجهولة. هكذا يظل منفصلا عنه ، لا يستطيع ان يتجاوب معه ، او ان يفهمه .

أضيف الى هذا كله أن من يريد أن يفهم او يقيم شيئا جديدا يختلف عن الاشياء التي عهدناها ، يجب أن يستند الى طريقة في الفهم او التقييم تكون هي كذلك جديدة ، أي تختلف عما عهدناه من طرائق .

ومن شروط الفهم ، أخيرا ، ان نعترف بأن الانسان محدود الفهم : بان المعاني كلها معلقة غير واضحة ، ما دام الانسان نفسه لم يفهم نفسه ... ومن لا يعرف نفسه المعرفة كلها ، لن يعرف أي شيء ، المعرفة كلها ...

— ١٤ —

أؤمن بهذا : الشعر العربي الجديد يقودنا صوب عالم جديد ، صوب انسانية جديدة بآفاق وقيم جديدة . وحياتنا اليوم يجب ان تكون في مستوى هذا الشعر : نحارب الراحة والكسل والعادة والارتخاء والاستسلام والخوف من المجهول ، ونفلت قوى النفس والخيال والحلم والمغامرة والابداع .

ولكن هذا الشعر لم يتحقق بعد بكامل ابعاده وايقاعاته واشكاله، لانه في مرحلة انتقال وتحول لا سابق لها ، شأنه في ذلك شأن الحياة العربية التي تمر في مرحلة انتقال وتحول لا سابق لمثلها في تاريخنا كله . ان الشعر العربي الجديد في صيرورة كهذه الحياة العربية الجديدة . لكنه نسغ يغذي فينا شريان الحيوية ويتيح لنا ان نحيا بهاء المصير على هذه الارض .

— ١٥ —

هل عبرت هذه الخواطر عن بعض الجوانب في تجربتي الشعرية، عن لحظة ماضية من لحظاتها ، عن لحظتها الحاضرة ، عن لحظة آتية ؟ ام ان ما كتبته حنين ينتظرني ، ينتظر ادونيس الآتي ؟

انني احلام وهواجس ..

والفكرة أفقر من الهاجس ، والنظرية أضيق من الحلم .

وحقيقة الشاعر تكمن في شعره أكثر مما تكمن في كلامه على الشعر .

ادونيس

تجربتي الشعرية ـ للبياتي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥ ـ

الى قديسين او صانعي معجزات . وانما هم اناس بسطاء انقياء طيبون مثل طيبة الارض وفي نقاء الجوهر ، لم يكن في مونهم منة على الاخرين وانما كان هذا الموت قدرا مفتح العيون ، فقد اختاروه بانفسهم لانه الواجب وليس المصير او الهدية التي يقدمونها للاخرين . ولكنهم تحولوا في أعين الاخرين الى ابطال لانهم جسدوا بموتهم الطريق الى الحرية واصبحوا رمزا اسطوريا للفداء ، لقد جمعوا كل فضائل المجتمع وجسدوا كل اماله واصبحوا الابطال النموذجيين . وهذا التصوير للموت يظهر في « النار والكلمات » وفي « سفر الفقر والثورة » و « الذي يأتي ولا يأتي » بشكل استبطان ورحلة الى اعماق نفوس هؤلاء الابطال والشهداء ، واستحضار شخصياتهم النموذجية.

كذلك كان الاحساس القديم بأن الانسان انما يشبه قطرة المطر الوحيدة المنفردة تلقى مصيرها على الارض دون معونة ، كذلك الانسان الذي ترك وحيدا عاجزا ليواجه محنة وجوده . وربما كان هذا هو نفس المفهوم الوجودي للنفي . وهناك المفهوم الثاني للنفي بمعناه الطبقي وبطله الانسان الفقير الذي ترك جائعا محروما عاريا ليواجه هذا المستوى من الحياة . وكان هناك النفي الثالث بمعنى ابعاد الانسان عن الارض التي ولد عليها وامتدت فيها جذوره . كانت هذه المعاني الثلاثة للنفي والغربة موجودة في اشعاري ، فقد احسست منذ البداية بغربة الانسان في العالم، ثم اكتشفت غربة الفقر ومنفاه . ثم كان علي ان أمر بتجربة الابعاد نفسها لسنوات طوال ومعاناة ابعادها الثلاثة معا .

ان الاحساس بالنفي والغربة لا يمكن ان يشعر به الفنان من خلال القراءة وحدها . فالشعور الميتافيزيقي عند الفنان لا يكون سابقا على التجربة ولكنه نتيجة لها . فالنفي والغربة التي يشعر بها الفنان وهو يجوب العالم بعيدا عن أرضه ، انما تعني ان يواجه الشاعر فقدان حريته وان يواجه موته مع كل منفى جديد . ان النفي والغربة اذا ما طال بهما الامد قد يلقيان بالفنان في رحاب ارض خرافية وقد تستحيل العودة منها ابدا ، بل ان اشواق الحنين للعودة لتبدو ساذجة احيانا امام الاعماق البعيدة التي غاصت اليها روح الفنان . اذ تصبح كل خطوة غربة جديدة في امتداد أرض الرحيل ، بل ان كل خطوة لتبدو ايغالا جديدا نحو ارض الموت التي لا عودة منها ، وقد يظل الفنان يتنفس رائحة الموت الذي هو غربته حتى بعد عودته ، سيظل يحمل منفاه داخله ، اذ اوقعته التجربة الخارجية في مأزق المعاناة الروحية الطاحنة .

ولكن الموت والمنفى لا يحدثان ولا ينتصبان فوق حياتنا دون محاولة الاجهاز عليهما ، دون التمرد ضدهما والثورة على ما يمثلانه في هذه الحياة . ولقد يمكن ان ننظر الى التمرد كحلقة اولى في العملية الثورية، بالنسبة للفرد او المجتمع ، ولكن التمرد لا يكون منطقيا ولا انسانيا ان لم تكمله الثورة . ان المتمرد دون ثورة انما يشبه البهلوان الذي يقفز مبتعدا عن الارض ضد قانون الجاذبية ، ولكن الارض تشده اليها حتى تهد قواه دون جدوى . والتمرد بعد ان تكتمل الثورة انما يكون تمردا ضدها ، انه الثورة المضادة ، بينما الثورة ضد الواقع القديم كانت بالنسبة الى عملية ديمومة للتمرد وتطوير له . هي عملية تتجاوز رفض الواقع الى محاولة تقويضه وبناء واقع جديد . هكذا كانت الثورة بالنسبة لي تمردا دائما حتى تكتمل ، ومن ثم تصبح الثورة دفاعا عن كيانها للمحافظة على روحها الخالقة .

وقد يبدو مشكلة الوجود والحياة ، فهمهما والمحافظة عليهما وتغيير مضمونهما هي المشكلة الاساسية للفنان وهنا تبدو قضية الحب ـ او مشكلته ـ جزءا من هذه المشكلة. والفنان ـ كما نعلم ـ انما يعبر عن جوهر الكل والجزء معا . وربما لم تترك لي حياتي العاصفة التي عشتها الفرصة او لم تمنحني ذلك الحق المترف للوقوف امام قضية الحب كجزء منفصل عن كله للتعبير عنه . وفي اشعاري يظهر مفهوم ـ او زاوية ـ اخرى للحب ، حب الام والارض والاطفال والوطن والانسان . اما الجنس فقد لا يكون مشكلة مؤرقة بالنسبة للفنان احيانا . وهنا يتخطاه الفنان فلا يجابهه او يعبر عنه منفصلا مجسدا ، وانما يتركه لكي يتوغل ويترسب في اعماق روحه لكي تتجسد حقيقته الانسانية الشاملة ، قوة دينامية خالقة للاشياء . وهذا ما كنت احاوله دائما .

ان بعض الكلمات لتكتسب في عيني احيانا صفات الكائن الحي ، فلا تكون مجرد كلمات مفردة ، اذ تضغط وتثوي فيها عوالم كبيرة ورؤى وذكريات حتى تصبح اشبه بالقمقم الذي حبس فيه العفريت او الجني الذي هو الحياة . تظل مثل هذه الكلمات تطاردني وتفرض وجودها علي بصورة طبيعية كأنها جزء من ذاتي وليست عبئا عليها . وهي احيانا رموز ومفاتيح لاشياء نسيت وماتت وترسبت في اعماق الروح ، وفي احيان اخرى تصبح دلالات على اشياء غير موجودة في هذا العالم على الاطلاق او انني اتمنى ان تكتسب هذا الوجود :

لقد خرجت من المنزل ، فبادرني هو بالسكر
وكل نظرة منه تخبيء وراءها مئات المنازل وحدائق الورد (١)

عبد الوهاب البياتي

---

(١) البيتان لجلال الدين الرومي وهو من اعظم الشعراء المتصوفين ويدعى ايضا : جلال الدين مولوي . ولد في مدينة بلخ ، وتركها في طفولته ابان حملة المغول ، ليذهب مع والده الى آسيا الصغرى . وهناك استقر مع اسرته حتى توفي بها عام ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) .

مؤلفات عميد الادب العربي

الدكتور طه حسين

وكتابه الذي صدر حديثا

جنة الحيوان

اطلبها من

دار العلم للملايين ص.ب. : ١٠٨٥ ـ بيروت

تتمة صلاح عبد الصبور

وافكاري من كل فضول . وقدرت في بعض قصائدي ان ارضي الالهين الاسطوريين كما ازمعت في مطلع حياتي .

اما مسرحيتي « مأساة الحلاج » فهي بداية خطواتي في طريق جديد هو طريق المسرح الشعري ، وانا لا احب المسرح الا شعريا ، ولا يعجبني كثيرا مسرح ابسن وأتباعه من الناثرين . واعتقد انمسرح ابسن الاجتماعي النثري مثل « بيت الدمية » و «عدو المجتمع» وغيرهما، هو مجرد انحرافة في تاريخ المسرح . ولذلك حديث غير هذا الحديث.

ما هي خلاصة تجربتي الشعرية ؟ لا ادري ، ولكنيّ اجدني قد جربت اشياء كثيره ، وخضت في بحار الرمز احيانا كما كشفت نفسي لشمس المباشرة احيانا اخرى . وكتبت الوانا منالشعر شبيهة بالقصة والبالاد ، وحاولت الوانا من المعمار في القصيدة ، ودسست الفكر في الموسيقى ، وجربت السخريه وعرفت طرقها الشعرية . ولكني ما زلت اعتقد ان هناك الكثير مما استطيعه ، وان تجربتي الشعرية لم تستوف تمامها بعد .

اتمنى ان اطيل ، ولكن ليس لدي ما اقول مما ينسم بالتجرد ، ولو استطردت لدسست نفسي في كل سطر . وما ذلك بحسن .

فمعذرة ...

القاهرة — صلاح عبد الصبور

تتمة محمد الفيتوري

انا زنجي ، وابي زنجي الجد .. وأمي زنجية
أنا أسود .. أسود لكني أملك الحرية .

قال لي : « انك تمزق القضيه ، وتمزق الطبقة ، وتمزق الكتلة الجماهيريه الواحدة ، بدعواك ان هناك قضية منفصلة للسود .. ان العامل الابيض ، والعامل الاسود ، ينوءان معا تحت عبء تاريخي واجتماعي واحد ، هو عبء الراسمالي الابيض ، والرأسمالي الاسود.. عبء الاستعمار والاستغلال .. فالقضية اذن ليست قضية اسود وابيض ، انها قضية مستغل ومستغل ، ومستعمر ومستعمر » .

قلت له : هذا حق .. وحق ايضا ، هذه الوراثات والخصائص النفسية والفسيولوجية .. هذه الاحاسيس والانفعالات الملتوية التي انحدرت الينا مع عذابات التاريخ ...

ان بصمات عصر العبودية ، تركت اثارها على الارواح ايضا ، وليس فقط على الاجساد .

وعلى الرغم من كثرة المتكلمين ، فقد ظل صوت محمود امين العالم ، اعلى الاصوات ، واعمقها في وجداني ..

« لم تكتمل بعد اداتي الشعرية ، التي ينبغي ان تكون لي ، حتى اواجه تجربتي الانسانية .. ولا تزال رؤيتي الخاصة العامة ، لهذا العالم ، باهتة بعض الشيء ، محدودة بعض الشيء ، خرساء بعض الشيء .. اريد ان ارى العالم بعيون حادة ، تستطيع ان ترصد ظواهره ، وتتفحص خلاياه ، وان تسجل كل ما فيه من تناقض وتضاد واختلال ...

فكذلك كان يراه اولئك الذين انا منهم .. ما لم أر بحواسي كلها ، فانا ما زلت اخرس .. « موسيقاي الشعرية ، في صخبها وعنفها ، ليست شيئا منفصلا عن كياني ، فلقد ورثت ايقاعات الطبول، وارتجافات الدفوف ، ودفات النحاس .. من الذي يطلب مني ان أكون غير ما أنا عليه ؟ .

منذ قرابة خمسة عشر عاما ، لم تكن في افريقيا كلها ، دولة واحدة مستقلة ، كانت شعوبا عظيمة نائمة ، وكنت اتصور اني اتحدث اليها جميعا .. للعرايا الجياع الحفاة الجامدين الذين يضطجعون على شواطيء الانهار ، وفي الاكواخ القذرة المعتمة ، وفي المستنقعات الملوثه ... كيف كان يمكن ان يصل اليهم صوتي ؟

ومع ذلك فلم اكن ابدا وحدي .. هنالك سيزار ، وسنغور ، وديفيد ديوب ، وهم يكتبون اشعارهم باللغة الفرنسية .. سارتر يتحدث عنهم معجبا بثورتهم وتمردهم ونحطيمهم تقاليد وقوانين لغه المحضرة : « انهم حولوا الكلمة الاوروبية إلى كلمه افريقية » !..

هل لاني اكتب باللغة العربية ، يجب ان انفصل عن تراثي .. عن ذاتي .. انني لا أشعر ، ولا اؤمن بوجود أي تناقض بين اسلوبي كعربي ، ورؤيتي كافريقي .. بين موقفي وتضالي .. لاكن جسرا بين انسانين ، كلاهما منجذب الى مستقبل واحد ..

« لا ليس هنالك ادنى فارق ، بين الايقاع والشكل ، بين الرمز والصورة ، بين الروح والمادة ، أن العلاقه بينهما هي علاقة الظل بالجسد .. ولن تكون الكلمة شعرية ، وذات فعالية ، ما لم تستمد قوتها من اتحاد هذين العنصرين » .. الاتحاد الذي لا انفصام له ... ومن هنا ، فانه لا جديد وقديم في الشعر .. الجديد هو الرؤية الانسانية الجديدة ، للواقع الاجتماعي المتغير ..

« كم من مرة ، اكتشفت الزيف والضحالة والموت ، متخفيا وراء شكل جديد ، شديد اللمعان .. وراء الصورة الملفقة ، والاحساس المفتعل ، والنغمة النشاز ، واحيانا وراء التجربه ذاتها ، ووراء التشاعر ذاته ..

« في مفهوم النضال الانساني ، يقول لينين ، ان الثورة ليست لعبة .. واقول ان الشعر ليس لعبه .. تكون شاعرا او لا تكون ...

« الوعي بحقيقة الاوضاع الاجتماعية ، وادراك التناقضات التي تفاعل داخل المجتمع الانساني ، والمؤثرات والعوامل التي تحرك التاريخ ، ثقافة ضرورية ، لا بد منها للشاعر المعاصر .. انه بغيرها يعزل نفسه ، عن حركة الحياة ، وكثير من الشعراء ماتوا ، لانهم ظلوا داخل قواقعهم الذاتية .. ماتوا لانهم ظلوا بعيدا عن الشمس والهواء ..

والقليلون هم الذين تحققت لديهم هذه الاهداف ...

ناظم حكمت واحد من هذا القليل ..

في الترجمة الرائعة ، التي قام بها الدكتور علي سعد ، لاشعار ناظم ، وضعنا ايدينا بورع وخشوع ، على قلب الشاعر الانساني العظيم ، النابض بالحب ، والنضال ، والروعة ..

يصفو ، ويعمق ، ويزداد حدة ، ويضرب في اغوار الحياة ، والتاريخ .. ويصبح شعرا حقيقيا ، وخلقا فنيا رفيعا ، صوت المناضل الثوري ، كما انطلق الينا في قصائده تارانتابابو ، والكتاب ذوالغلاف القديم ، ورسائله الى زوجته ...

ابدا لم اقرأ شعرا اشتراكيا ، في مثل هذا المستوى من قبل ، ولا من بعد .. »

« ليست النماذج والافكار الرجعية فقط التي نتنقدها ونرفضها وندينها ، بل ايضا النماذج والافكار الدعائية ، التي يتجرد فيها الشعر ، من جوهر الشعر ...

« ما لم تتوفر للشعر عناصره ، فالمقالات السياسية ، المباشرة، تكفي لتأدية هذا الدور ..

« في السنوات الاخيرة ، ادركتني أزمة عنيفة ، اسكتتني عن كتابة الشعر ، وقد عرض لها صديقي الكاتب رجاء النقاش ، فيدراسة تفصيلية له ، سبق ان نشرتها الاداب ..

لقد بكيت وانا اقرؤها .. كان رجاء قد لمس اوتارا حزينة في نفسي .. ارتكز الى بعض النقاط الصحيحة ، لأزمتي الفكرية والفنية والنفسية حينذاك ..

« اعتقد ان الشعر يولد في الصمت ، ويموت بالصمت » يتنفس في الجماعة ، ويختنق بالعزلة .. الشعر مخلوق اجتماعي لا يعيش في مناخ نفسي ، مليء بالثقوب والفراغات .

وفي السنوات الاخيرة ، كان لا بد لي من زلزال ، يحدث شرخا عميقا ، في الجدار الذي انتصب ما بين نفسي وبين الشعر .. ووقع الزلزال .